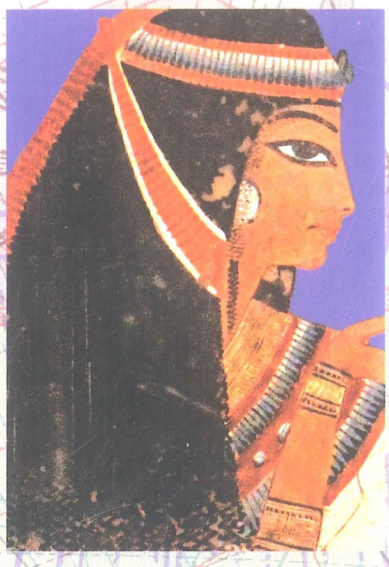

01
روايات الأهرام

قيس ونيللي

محمد ناجي

مركز الأهرام للنشر

قيس ونيللي

إصدار مركز الأهرام للنشر
جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر
مركز الأهرام للنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون: ٢٧٧٠٣٤٤٥ - ٢٧٧٠٥٠٦٣

رقم الإيداع ٢٠٩٧٤ / ٢٠١٤
ISBN 978- 977 - 320- 210- 1

منذ إنشائه فى ١٩٧٦ تحت اسم مركز الأهرام للترجمة العلمية وخلال مسيرته بعد أن أصبح مركز الأهرام للترجمة والنشر وصولا إلى وضعه الراهن، أصدر مئات العناوين التى حملت خلاصة عقول وأفكار وإبداع نخبة من المفكرين والكتّاب فى مصر والعالم العربى. ويرحب المركز باقتراحاتكم وأفكاركم.

الطبعة الأولى
نوفمبر ٢٠١٤

محمد ناجي

قيس ونيللي

رواية

مركز الأهرام للنشر

٢٠١٤

(أحبّ قيس نيللى من أول نظرة، نعم من أول نظرة، ولن نجادل فى ذلك. لقد باركت شمس الشتاء المشهد بابتسامة رضى ساطعة، وطوّقت الفتى بهالة نورانية دافئة وهو يختلس نظرته الأولى.)

هى كانت تتأهب للنزول من التاكسى أمام البنك الأهلى، وهو نظر خلسة، طويلا لكن خلسة. صادفت نظرته الأولى انكشافَ البياض المحظور فوق حافة الجورب. الأغلب أنها لم تلاحظ، عقدت الأسْتك عقدتين، ثم ألقت نظرة سريعة على المرآة الداخلية ونزلت.

حسمت نظرته الأولى الجانبية كل شئ، لكن النظرات الخلفية أعطته فرصة أكبر ليستقرّ الإحساس الحلو فى عينيه نظرة بعد نظرة؛ الخطى والقوام ولفَّة الساق، والفراء الأسود؛ الذى يطوّق العنق ويلتف حول أساور التايور الأزرق.

كان يمكن فى تلك اللحظة رؤية كِيوبيد الطفل؛ فى أحد تجلياته النادرة فوق أرض مصر. حملته سحابة من بلاد اليونان أو ربّما من إيطاليا، وسوّحته الريح طويلا فوق سواحل إفريقيا، لكنه استطاع بإرادة إله أن يصل فى الوقت المناسب. وحين اختلس العاشق نظرته الأولى؛ كان ابن فينوس حاضرا بقوسه وسهامه فوق البنك الأهلى فى شارع شريف.

الأرجح؛ لم يلاحظ أحد ذلك. لا يمكن لأحد أن يشغل نفسه بالنظر إلى السماء فى تلك اللحظة من الصباح، كانت العيون تزحف عبر الرصيفين باحثة عن موطئ قدم بين عجلات السيارات، وعلى عتبات البنك عيون تترقب تحرّك الأبواب المغلقة مع موعد بدء العمل.

(عموما كانت ومضة التجلى مباغتة ومراوغة، أدَّى الطفل الأبدى دوره ببراعة من قام بذلك مرات لا تحصى، وتنتظره مرات أخرى بلا عدد) رمى سهمه ثم تثاءب بملل، وتخفّى بمكر إله متمددا فى سحابة ملونة بغبار الإسمنت وعوادم السيارات. بدا فى تلاشيه كأنه شاخ فى طفولته واصفرّت أسنانه، وحين حاول أن يستعيد ابتسامته؛ انفتح فكاه مثل ذئب، وتبدد فى الريح.

رفرف قلب الفتى خلف الفتاة على سلّم البنك، ولم يغب اللون الأزرق عن عينيه وهو يتلكأ فى الممر الدائرى. ظل ممسكا طرف اللون بالتفاتات مراوغة بين خطوة وأخرى. لاحظ تلك الغمضة الباسمة فى عينيها وهى تدير وجهها فى كسل بعيدا عن نظراته، ولاحظ أيضا أنها تستدير نحوه مرة أخرى فى انتظار الالتفاتة التالية. واضح أن السهم نفذ.

حين اطمأن إلى طول الطابور الذى وقفت فيه؛ أسرع إلى شباك التحويلات الخارجية. سؤال سريع، وجواب خيّب ظنّه. رجع قبل أن تتحرك من مكانها. تلكأ بين الطوابير طويلا، وتوقّف أحيانا ليسأل عن أشياء لا تعنيه؛ مترقبا ظهور الكُمَّ الأزرق فى زحام الطابور. لم يكن يعرف ما يريد بالضبط، لكن ربما كان يحس أن شيئا ما سيحدث، شيئا مقدّرا سلفا.

كان كل شئ مقدرا فعلا منذ فتحت الملائكة عيونها فى الصباح؛ رتّبت كل التفاصيل على عجل، وأعدّت بعض المفاجآت الصغيرة لتسهيل الأحداث، وربما كانت عثرة الفتاة على سلم البنك من تلك التساهيل المقدرة سلفا. صحيح أن اللقطة مكررة، لكنها الأسرع للذاكرة، ثم أنها مجرّبة كثيرا فى المسلسلات والأفلام.

وكما يحدث دائما؛ دفعتها العثرة باتجاه حضن البذلة الخضراء، وأحدثت شهقة المفاجأة نقلة فى إيقاع الصوت:

- سلامتك يا آنسة..

- سورى..

سار كل شئ بعد ذلك على النحو المألوف، فيما عدا بعض التعديلات الطفيفة التى تناسب الحال:

- اسمى قيس.

- وأنا نيللى.

◆ ◆ ◆

- كدت تفقد حقيبتك وأنت تسندنى، لو رآها حرامى لخطفها.

- ليس فيها شئ ينفعه؛ إخطار التحويل لم يصل، والحقيبة فارغة.

تخيَّلت المساحة الخالية فى الحقيبة الرقمية، وحاولت أن تخمن حجم التحويل المرتقب. تنفست خيالاتها، وابتسمت:

- حقيبتى أيضا فارغة؛ أودعت كل ما كان فيها بالبنك.

◆ ◆ ◆

- يبدو أن البنك ضايقك، هل تفكر فى تغييره.

- أحسن من غيره، وأقرب لي.

- لكنه عطّل وصول فلوسك كما ذكرت.

- التأخير من هناك. سأتصل بهم الليلة لأعرف متى أرسلوا الإخطار بالضبط.

- هل حدث ذلك معك من قبل؟

- كثيرا، اعتدت ذلك.

- كم مرة ؟

- تقريبا؛ كل مرة.

◆ ◆ ◆

كان كل شئ غامضا.

◆ ◆ ◆

- اسمى نيللى.

- ذاكرتى قوية؛ الآنسة نيللى، لكنى لا أعرف عنك أكثر من ذلك.

- ما زلت طالبة فى الجامعة، لكنى لا أهتم بالدراسة كثيرا، الشغل أهم.

- وماذا تعملين؟

- أعمال حرة. فى رأسى مليون فكرة، لكنى لم أستقر على واحدة، لن أضع فلوسى إلا فى مشروع مضمون.

حاول أن يخمن لكن المسألة كانت غامضة ومربكة. بلع تخميناته، وواصل الكلام:

- والشهادة؟

- لا أطمع فى وظيفة.

- لكن الشهادة مهمة فى مجتمعنا، لابد أن تحصلى عليها.

- يا رب.

◆ ◆ ◆

- اسمك غريب ونادر؛ هل أنت عربي؟

- صعيدى، وأنت؟

- من الفيوم.

- تقيمين فى بيت الطالبات؟

- ولماذا بيت الطالبات؟ أنا أسكن على النيل، فى شارع البحر الأعظم، الأبراج العالية.

- وحدك؟

- بل مع بيكو.

- بيكو؟!

أطبق شفتيه، لكن فقاعة ضحك انفجرت في منخاره. فَهِمَت السبب فضحكَت معه، وشرحت له:

- هذا اسم الدلع؛ هو فنان ويحب الدلع، اسمه الحقيقى بكرى نافع.

- الاسم ليس غريبا على أذنى، أسمعه، أو ربما أقرأه أحيانا.

- الفنان بكرى نافع؛ مشهور جدا.

سكت قيس، فخمنت نيللى السؤال المعلق خلف شفتيه. تنفست حذرها، ووصَلت الكلام:

- هل أخبرتك أنه عمى، نعم عمى. هو رسّام، وأنا فنانة مثله، غاوية تمثيل.

◆ ◆ ◆

لفَّت فى الكلام، وعادت للنقطة الغامضة:

- أين سيارتك؟

- مشوارى لا يحتاج سيارة؛ خطوتان.

وحدّد الاتجاه بإشارة ملتوية:

- هنا، فى باب اللوق.

- مكتبك؟

- بل سكنى.

- ومكتبك؟

- وسط البلد أيضا؛ شارع شامبليون، قرب دار القضاء.

أغمضت رموشها وفتحتها:

- هل أنت رجل أعمال؟

- رجل أثقال.

كان جوابه ملتبسا.

◆ ◆ ◆

فى النهاية؛ علينا أن نعترف بأن التايور الأزرق والبذلة الخضراء تألقا فى العرض القصير بين شارع شريف وميدان التحرير. كانا جملة موسيقية بين قوسين وسط فوضى الشارع وضوضائه، وقد مالت البنت بوجهها قليلا صوب العاشق دون أن تفقد حذرها فى مراقبة موضع خطاها، وتقوس جسم الفتى قليلا فى حنو خجول، وردفاه يتخبطان فى إيقاع يناسب الحديث العاطفى الرصين.

عرف رقم الموبايل ووعدها:

ـ سأكلّمك فى الليل.

ـ ولماذا الليل؟

ـ أغلب عملى واتصالاتى فى الليل.

ـ اكتب الرقم حتى لا تنساه.

ـ أحفظ الأرقام من أول مرة؛ موهبة تفيدنى كثيرا، وهى كل عملى الآن.

كان مشهد الوداع مؤثرا عند مدخل الميدان؛ رفرف الكمّ الأخضر

أمام شباك التاكسى:

ـ باى باى، سأكلمك فى الليل.

واشرأب طرف الكمّ الأزرق على حافة النافذة:

ـ كلّمنى فى أى وقت، باى.

صفر أمين المرور، وفتحت الإشارة الطريق للعربات. تداخلت ألوان السيارات وأصوات الأبواق فى زحمة الميدان وهى تسابق المطر الوشيك. كان المَلاك يسوق جِمَاله المحمّلة بخزائن المطر فى سماء المدينة، وهى تجترّ رعودها القديمة؛ تلك التى أطلقتها من قبل مرات لا تحصى، وتنتظرها مرات أخرى بلا عدد.

حين عادت نيللى كان بكرى نائما، تُطبق روائح الألوان على صدره، ويتعثر شخير فى عتمة حلقه المفتوح. من الواضح أنه لم يضف لمسة واحدة للوحة، لا تزال الجماجم طافية فوق بياض القماش، جماجم لها ملامح البيوت والمكاتب والعربات، مشبوكة ببقايا هياكل عظمية وعفن أحشاء. لا تزال اللمسة الحمراء على طرف الفرشاة، منذ يومين وهو لا يعرف أين يضعها، جف الأحمر وتغضَّن مثل جرح.

ألقت نظرة سريعة وانسحبت إلى غرفتها. بدّلت ملابسها، ثم مسحت آثار المطر عن التايور، وعلّقته بعناية على شماعة خلف الباب.

على التايور الأزرق ماركة فرنسية مشهورة، لكن يبدو أنها مزوَّرة.

زمان؛ اشترته ممثلة صاعدة من محل بالغ التواضع فى منتجع «كازلي كول» التركى. محل بلا واجهات زجاجية ولا عتبات من رخام. باب خشبى، وشماعات ورفوف عليها ملابس الصيف، وسلال مكدسة ببقايا موسم الشتاء.

غرز البائع ذو الشوارب إصبعه فى العلامة المشهورة، وأبلغها السعر بحسم تركى من أحفاد السلاطين، ثم تشاغل عن مساومتها بمسح آثار زكام نهاية الموسم، وحين همَّت بالانصراف؛ برَمَ شاربه وقبل نصف السعر بحسم أيضا.

أبدت تشكّكها فى صحّة الماركة، لكن صديقها المُخرج أخبرها أن ذلك لا يقلق عاقلا (كان رأيه أن التقليد سمة العصر، وأن كل شئ مغشوش من الماركات التجارية إلى الشعارات السياسية. شرح لها بهذه

المناسبة أنه حتى الليبرالية الموجودة فى الأسواق الآن مزيفة؛ الماركة فرنسية والصناعة تركية.

كانت الممثلة بصحبة صديقها فى فندق المنتجع الصغير، وسط ينابيع المياه وأحواض الطين السحرى الذى يعالج آلام الروماتيزم والأعصاب. زادت آلامه وتقلّصات يده بعد فشل فيلمه الأخير، فهرب بصديقته إلى ذلك المكان. كان ساخطا على النقاد والمنتجين، وأيضا على الجمهور الذى يتعامل مع الفن بذوق متفرجى السيرك.

لم يكن راضيا حتى عن أفلامه. حلمه الأخير أن يبدأ مسيرة مختلفة فى المسرح. يكتب النصّ بنفسه، ويدرب صديقته الممثلة على الدور الذى يفصّله لها.

(حدّثها طويلا وهما يغوصان فى أحواض الوحل عن آرائه فى الحياة والفن. بالتأكيد نسيت الآن كل ما قال عن أن الحياة نفسها قد تكون نسخة مقلدة، وأن الفن هو المحاولة الوحيدة الجادة لاستعادة الوهج الأول، الوجود الأصيل) لا يمكن أن تتذكر ذلك الآن؛ وهى تتشبث بسماعة التليفون فى ثرثرة طويلة مع إحدى صاحباتها، والمكيف ينفث أزيزه فى الجدران.

كان مثاليا تعسا، يطارد ذلك الوهج المستحيل؛ الوهج البكر، وكانت هى بالنسبة له محاولة من هذا القبيل. يصعد معها سلّم الرغبة ببطء وحذر، لكن الدرج الجليدى يذوب تحت وقع خطواته، وينهار به آخر الليل على السرير. يبسط راحته ويطويها تحت الوسادة، وهو يرقب فجر «كازلي كول» الملون من فرْجة الشبّاك، ويحاول أن يشرح لها كيف أن حضور الممثل على خشبة المسرح أكثر أصالة من حضوره الشخصى فى الحياة.

هى لم تفهم أفكاره أبدا، خاصة عندما كان يخلط الأشياء ببعضها ويفلسف أتفه الأمور، لكنها ظلت تعتبره أستاذها وأحبّت نبْرة الإخلاص فى كلامه. كانت آراؤه الغامضة وصبواته المستحيلة تشحنها برؤى وانفعالات، وتضعها فى حالة فنية مبهمة.

بعد رحلة «كازلي كول» سار من فشل إلى فشل. اختفى بعد سقوط تجربته على خشبة المسرح. اختفى فجأة، وقِيل إنه يعمل فى محطة تجارية للأفلام التسجيلية فى إيطاليا. هى تخبّطت بعده فى أدوار صغيرة فى السينما وعلى المسرح ثم اعتزلت، تزوجت واعتزلت، أصبحت نسخة مكررة يوميا. ربما تفاجئها بروقها الحميمة أحيانا بين مرايا الكوافير، فينبض وجهها بالدهشة القديمة، الدهشة الأولى، وتلهث نظراتها بين المرايا المتقابلة.

◆ ◆ ◆

حملت عربات الروبابيكيا التايور الأزرق مع ملابس أخرى سواريه وماتينيه إلى وكالة البلح، ومن هناك اشترته نيللى بثلاثين جنيها، واشترى بكرى لنفسه بالطو، وكوفيّة من التريكو لا يستطيع أحد أن يحسم إن كانت رجالية أم نسائية.

حين نزل التايور من على شماعة الروبابيكيا كان شيئا زرِيا، شيئا مختلفا تماما عن ذلك التايور الذى تألّق بين أضواء المسارح والبلاتوهات. بقعة حمراء على الفراء، وفتق يهبط بأصابع اليد من الجيب إلى داخل البطانة، أما تيكت الماركة الفرنسية فكان مشبوكا بغرزة واحدة.

أمضت نيللى ليلة كاملة فى ترميم التايور، استخدمت كل الحيل المعروفة فى إزالة بقعة الروج، وأعادت تثبيت التيكت، وعالجت فتوق

البطانة والجيب. عثرت فى قاع البطانة على عملة فضية مكتوب على احد وجهيها: «*سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان*»، وعلى الوجه الآخر كتابة زخرفية على شكل طائر لم تستطع أن تفك طلاسمها ومكتوب تحتها: «*ضرب فى قسطنطينية ١٢٢٣*». وجدت أيضا صورة شخصية ملونة؛ شاب بشفاه غليظة وبشرة بيضاء وشعر ذهبي.

أشفقت على التايور من خشونة المسمار المعلق خلف الباب، فاختلست له شماعة من دولاب بكرى، واختارت بالتحديد الشماعة الخشبية المعلّق عليها البالطو.

كان ذلك سببا لأول مشاجرة حقيقية بينهما.

الدولاب فى حالة فوضى أصلا، لكن سقوط البالطو كان لمسة إضافية شحنت بكرى بغضب مسموم، خمّن ما حدث بسرعة لكنه لم يواجهها بنفس السرعة، ارتجل تمثيلية بوليسية مملّة عذبها بها حتى مطلع الفجر.

بدأ السيناريو بمشهد اعتادته منه بعد ذلك حين يستحضر العواصف. نظر إليها طويلا وهو واقف بالفانلة والشورت أمام الدولاب المفتوح، يد فى وسطه، والأخرى تمشط شعره الطويل. ثم انحنى ينكش قاع الدولاب والأدراج، ينكش وينظر إليها.

ـ ماذا تفعل يا بيكو؟

جاوبها أربع مرات بنظرات متحفزة صامتة، وبعد الإعادة الخامسة للسؤال هبّت رياحُ غضبه:

ـ أبحث عن أشياء كانت هنا.

اقتربت، وحاولت أن تساعده، لكنه دفعها بظهر يده وواصل النَكْش:

ـ ابعدى.

دفعة خشنة، ونظرة مستريبة كارهة.

ـ بيكو حبيبي؛ ماذا جرى؟

عدَّد على أصابعه:

ـ فلوس، تحف، أوراق، وأشياء غيرها، حتى شماعة البالطو اختفت.

فى خناقاته الطويلة المملة ينتهى الأمر عادة بتخلى بكرى عن كل الاتهامات التى بدأ بها ليلته، لكنه فى تلك الليلة لم يتخل عن الشماعة، كرر الاتهام أكثر من مرة فى صيغة سؤال حاسم:

ـ ألم تعلّقى البالطو عليها بنفسك؟

وهى اعترفت:

ـ بيكو حبيبى، الشماعة عندى، المهم الأشياء الأخرى؛ هل أنت متأكد؟

حين أدركت أن المسألة انحصرت فى الشماعة احتجّت:

ـ كل ذلك من أجل شماعة؟!.

احتجّ على فكرة ازدراء البالطو وتفضيل التايور عليه، وأنذرها:

ـ لو تكرر ذلك مرة أخرى سأطردك، لم افتح لك بيتى لتسرقينى.

كانت تصغى لصوت المطر فى الخارج، وتبكى:

ـ لم أسرقها يا بيكو، كنت فرحة بالتايور، فرحت به جدا فعلقته على الشماعة، ماذا جرى؟!

◆ ◆ ◆

زمان كان تهديده بالطرد يخيفها، الآن لا تهتم؛ أصبحت تعرف طريقها فى الليل، تلبس هدومها وتشتمه كما يشتمها:

ـ باى باى يا معفِّن.)

اعتادت ذلك الآن، وهو أيضا اعتاد رحيلها المفاجئ. تكرر المشهد مرات لا يستطيع أن يحصيها. أحيانا لا تنتظر مبررا، مجرد رنّة موبايل؛ تلبس وتقبِّل خده:

ـ باى بيكو.

يهز رجليه فى مجلسه الدائم فوق السرير، وينذرها:

ـ إذا تأخرت لا تعودى، ابحثى عن مكان آخر.

أكثر من مرة عاندت واختبرت تحذيره؛ تغيب ليلة أو ليلتين، ويبدأ هو فى مطاردتها بالموبايل. يعاتبها على نكران الجميل، ويذكِّرها بما يقدمه لها؛ المأوى والفلوس والأمان، ويحذِّرها:

ـ لابد أن تتحملينى، افعلى ذلك لأجل نفسك، خارج هذا البيت ستضيعين.

تعود فى النهاية، تفاجئه ذات صباح أو مساء، تحتضنه بحنان وتقبّل خده:

ـ وحشتنى يا معفِّن.

لا تغضب الكلمة بكرى، لكنه يتصنع الغضب أحيانا. لغضبه الآن اللون الوردى لشهوة قديمة. يضحك وهو يعيد الحكايات على أصحابه فى سهراتهم المتباعدة، التى تمتد أحيانا حتى الفجر:

ـ الآن أصبحت تشتمنى، اعتادت ذلك: *«صباح الخير يا معفِّن، باى باى يا معفِّن»*.

يضحكون أيضا وهم يتأملون المكان؛ عناكب وخيوط غبار، وبقع رماد وطعام وألوان. يتأملون ويضحكون؛ الكلمة لا تخلو من معنى.

دارت عيون أبو شَنَبْ فى المكان، ثم طأطأ رأسه وأمسك لسانه.

بلع العبارة التى تثير غضب بكرى دائما وكتمها مع أنفاس الدخان، لكن بكرى نكش أفكاره وهو يهز رجليه فى مجلسه الدائم فوق السرير، واستنطقه:

ـ قلها يا بغل: «*معها حق*»، قلها كما تقولها كل مرة.

لم يجاوبه أبو شنب على الفور؛ انتظر حتى صفّى صدره من الدخان، وحاول أن يشرح ما لم يقله:

ـ لم أفتح فمى لكن لسانك نطق بالحق يا باشا. صح؛ الحق معها فى هذه المسألة، المكان يحتاج نظافة.

ثم دار بعينيه على وجوه الجالسين مستفتيا:

ـ صح يا باشوات؟

نفخ أبو شنب الجمر، وانتظر أن يُنجده أى واحد من الثلاثة؛ اللواء فادى، والمستشار نصيف، والنائب رضوان.

كانوا موزعين على فوتيهات عتيقة متنافرة، كل واحد طراز مختلف، وأبو شنب على الأرض بين أرجل الجميع (تحته سجادة إيرانية مهترئة عليها بقايا رسوم فرسان يطاردون غزلانا، وفوقه مروحة سقف توقفت عن الدوران منذ سنين. فى خلفية المشهد أمام الشرفة الواسعة، حامل خشبى عليه لوحة لم تكتمل، فيها أخلاط هياكل عظمية. وقرب الحامل طاولة صغيرة وعلب ألوان.)

تجاهل الثلاثة سؤال أبو شنب بابتسامات محايدة، وتركوه وحده فى مواجهة بكرى مترقبين الكلام المعاد.

ـ هى لا تقصد المكان يا بغل، وإنما تشتمنى أنا، تبصُّ فى عينى

وتشتم. بعد كل ما قدمتُ لها تقول لي: «*يا معفِّن*»، ثم تقول أنت: «*معها حق*».

تشاغل أبو شنب بتنظيف الجوزة وتعميرها، وترك بكرى يكمل دورة الأسطوانة المعروفة؛ بنات قبلها وبنات بعدها وهى الوحيدة التى سمح لها بالسكن معه، وأعطاها المفتاح.

ـ ماذا تريد أكثر من ذلك؟!.. لو طردتها إلى الشارع الذى جاءت منه لضاعت بين أقسام البوليس وأوكار القوَّادين.

ولام نفسه على تحمّلها:

ـ لا أدرى لماذا أصبر عليها، إعلان صغير يجلب لى عشرات البنات، وكما جاءت هى تأتى غيرها، وربما أجمل وأرخص.

يختلق بكرى السيناريوهات ويندمج فى الدور لكنه لا يثور بجد، يضبط الأداء عند حد يمكنه من الانتقال من الغضب إلى الضحك. هى جلسة سمر فى النهاية، مساحات غامضة من «الغضب الضاحك» أو «الضحك الغاضب». سمر يرهق الأصحاب إلى درجة تجبرهم على نسيان الهموم.

◆ ◆ ◆

الليلة كان مزاجه مختلفا.

حرَمَه الشتاء من مجئ أصحابه، وشحنه إيقاع المطر بحنين غامض جيَّاش. جلس وحيدا أمام اللوحة التى لم تكتمل، يتأمل المساحات الخالية، ويحاول تخمين الألوان. يفكر أحيانا فى ألوان لا يراها غيره؛ «الأزرق المخنوق»، «الأخضر المسموم»، «الأحمر الحيران».

احتضنت نيللى رنّة الموبايل بفرح، قبل أن ترد بصوت تمثيلى هادئ:

ـ هالو قيس باشا.

ـ كيف عرفتِ أننى قيس؟!

لخبَطَ أفكارها من أول جملة، وهو أيضا كان مرتبكا؛ ينقطع عن الحديث فجأة، ويعود إليها بعد لحظات. تحمَّلته بشغف وهى تحاول أن تخمِّن انشغالاته.

ـ واضح أن أعمالك كثيرة.

ـ كما تسمعين، التليفونات لا تكف عن الرنين، وكلّها اتصالات مهمّة.

ـ حتى هذا الوقت المتأخر من الليل؟!

ـ وأحيانا حتى الفجر، حسب ظروف العمل.

ـ كم ساعة تعمل فى اليوم تقريبا؟

ـ لا أقل من ثمانى ساعات، وربما أكثر.

ـ أحسست من أول نظرة أنك شخص جاد ..

ـ ...

ـ .. ولطيف أيضا.

بعد ذلك جرت المكالمة الطويلة المتقطعة وفق سيناريوهات الصّبابة المكتوبة منذ الأزل، وانتهت كالعادة بموعد للقاء.

فى تلك الليلة سهر الملاكُ يقلِّب مرايا البرْق فى الآفاق، فيضئ حواف السحب، ويعيد تشكيل السماء. وسهرت نيللى تتنفس خيالاتها، وتشرئب

بنظراتها عبر زجاج النافذة، باحثة فى المشاهد العلوية عن بشارات تتمناها. نامت جالسة وهى تسند رأسها إلى صدر السرير، وصاحب ملاكُها الحارس أحلامَها بعزف مستعاد من أفلام الأبيض والأسود.

◆ ◆ ◆

حرص قيس على أن يكون موعده مع نيللى يوم «النبطشية الخضراء»؛ دوره فى لبس البذلة المميزة.

يتناوب لبسها مع رفيقين زاملاه فى كلية الحقوق، ويسكنون الآن معا غرفة على سطح أحد المبانى العتيقة خلف ميدان «باب اللوق.» يتشاركون فى تكاليف المسكن والأكل وبعض الأشياء الأخرى. تعاونوا فى شراء البذلة، ويتبادلون لبسها بالدور، ويسمّون يومها «النبطشية الخضراء».

يتشابه الرفاق فى الطول والعرض، ويبدون فى البذلة الخضراء كأنهم خيالات فى مرايا لأصل واحد محتجب، مع اختلافات بسيطة فى بعض التفاصيل؛ أنف، شعر، نظارة، حقيبة، حذاء.

باعها لهم ترزى بسعر القماش فقط. كان قد فصَّلها فى الأصل لحساب فنان مغمور يشترى ملابسه من عنده، ويدفع بالتقسيط. اختار الزبون القماش، وجرّب المقاس، لكنه اختفى قبل الاستلام. ربما سافر أو مات أو عجز عن السداد. باعها الترزى بالخسارة قبل أن تصيبها العتَّة، وكانت الصفقة لُقطة بالنسبة للرفاق الثلاثة؛ قماش «هيلد» انجليزى.

يغار قيس على البذلة من شريكيه، ويتمنى لو كانت له وحده. ينظفها بالبنزين ويكويها بعناية، ويستعد لها بذقن حليق وحمّام وعطر، ويوفِّق مشاويره ومواعيده المهمة حسب دوره فى لبسها.

الليلة؛ كان أكثر حرصا عليها، تمهّل طويلا بعد انتهاء عمله حتى

خف المطر، ثم شمّر البنطلون، ولبس فوق الجاكتة سترة من أكياس بلاستيكية وصلها بالبلاستر، وقطع الطريق قفزا إلى مسكنه.

كان لقاؤه بنيللى انقلابا مبهجا، صرفه عن التفكير فى تعثّر طموحاته، بل ربما بدا له ما حدث بشارة بحظ أحسن. الآن ثقته أكبر، يرفرف فوق حفر الطريق وبرَك المياه ويحلم بخفّة، لا توجعه حسابات النجاح والفشل.

◆ ◆ ◆

فى غرفة العاشق ثلاثة أسرَّة حديدية ودولاب خشبى وطاولة وبوتاجاز، ولها شرفة على حارة ضيّقة، أما دورة المياه ففى عراء السطح.

دخل قيس وهو يسدُّ أنفه حتى لا يتنفس العطن الذى يرشح من رفيقيه. يضايقه ذلك دائما، لكنه يعتاد الرائحة بمرور الوقت. تتكرر المشكلة كل ليلة، فهو يرجع عادة بعد أن تكون الغرفة تشبَّعت برائحة جوف النائمين؛ ديمترى وحسين.

حسين محاسب فى صيدلية، وديمترى جرسون، ينتهى عملهما فى منتصف الليل، أما قيس فيعود بعد ذلك دائما بحكم عمله فى صحيفة «أضواء الغد».

هو ليس سعيدا بعمله الآن، لكن الصحافة طريق أحلامه فى النهاية. لديه ترتيبات وخطط لو أفلحت لفتحت له أبواب الدنيا، وقرّبت إليه أى شئ يريده، المهم أن يتخطى عقبة البدايات.

الليلة، مع مولد شغفه بنيللى؛ تبدو له الأمور وردية. يتذكر أن مدير التحرير عامله آخر مرّة بطريقة مختلفة، لم ينهره كالعادة وإنما سمعه بصبر ونصحه بلهجة لطيفة:

ـ اصبر، ربما تسنح فرصة لنقلك إلى عمل صحفى، لكن لا تلحّ علىّ.

ليس أمامه سوى الصبر، يراقب تقلّبات مزاج مدير التحرير ليذكّره بطلبه فى الوقت المناسب، ويتطوع له بخدمات خارج مهام وأوقات عمله ليكسب رضاه؛ حجز طيران، تسديد فاتورة تليفون، ختم أوراق من النقابة. يراهن عليه لتحقيق حلمه.

◆ ◆ ◆

احتضن قيس شغفه بنيللى، وأدرجها فى سياق أحلامه الكبرى. نطّ بخيالاته من نجاح إلى نجاح، متجاهلا رائحة رفيقيه وشخيرهما.

تجنّبت نيللى غرفة بكرى بقية الليل، وعندما جاء هو إلى غرفتها دفعته بمكر إلى الانصرف؛ أدارت وجهها بعيدا عنه وهى تغطّى أنفها وفمها، ورفرفت له بيدها تحذّره:

ـ ابعد؛ عندى انفلونزا.

كانت وقائع الصباح تبشّرها بحكاية تشبه الأفلام السعيدة، وهى تريد أن تعيش فرحتها، وتخشى أن يفسد بكرى عليها الأمر، لا تضمن تقلّبات مزاجه.

حين جاءت إليه أول مرّة بدا كريما وأبويا، عاملها بلطف وكأنه يقوم بعمل من أعمال البرّ، ولم يثقل عليها بالأسئلة ولا بالطلبات. أخبرها إن أهم ما يريد منها هو أن تصحبه فى بعض مشاويره الخاصة وزياراته للطبيب، وأن تتولى شراء احتياجاته وتذكيره بمواعيد الأدوية، ولا يهمه أىّ شئ بعد ذلك.

قال بوضوح:

ـ بعد ذلك افعلى ما تشائين، وحسب مزاجك.

فهمَت أن العمل المطلوب أقرب إلى شغل التمريض والتشهيلات والترفيه، رغم أن إعلانه يطلب سكرتيره. لم تجد فرقا بين الأمرين، وهى جاءت أساسا مستعدة لقبول أى عمل وأى وضع، ثم إن المقابل كان مغريا؛ ستمائة جنيه وأكل وإقامة مجانية. اعتبرت العرض استراحة من تشردها الطويل.

جاءت نيللى أساسا من بلدها لتكمل الدراسة.

نشَّنَت على كليات ومعاهد القاهرة فى رغبات التنسيق الجامعى، لتهرب من الحياة مع أمها فى الريف. قدَّرت أن فرص العمل ستكون متاحة بسهولة، وفرحت بالتجربة؛ دنيا أخرى وزحام وأنوار وحريَّة، لكن البدايات كانت صعبة.

بدأت مع امرأة من بلدها معروفة فى الوسط الفنى باسم «جمهور»، شُغْلها أن تجمع البنات ليرقصن بين الصفوف فى حفلات المطربين الشبان، وأن تفبرك جمهورا إضافيا يُلهْلب الصالة، ولكل بنت عشرون جنيها.

غلب لقب «جمهور» على اسم المرأة الأصلى، حتى صار أهلها ينادونها به حين تزور بلدها بالسيارة والعباءة الخليجية وأساور الذهب؛ «الحاجة جمهور». كانت رمزا للنجاح.

خارج مواسم الغناء عملت نيللى بائعة، وغاسلة أطباق فى مطاعم. لم تكن تكاليف الأكل مشكلة أبدا، بل كانت الأزمة فى السكن، كل فترة فى مكان، ودائما بين غرباء.

جاء عرض بكرى بعد تلك الأعمال الطارئة والمؤقتة، فقبلته بفرح. اعتبرته فرصة معقولة للاستقرار والتوفير، وحرصت منذ البداية على أن تُودع المرتب بالكامل فى البنك، وأن تدبِّر مصروفاتها الشخصية بوسائل أخرى.

أحيانا؛ تدبَّرها من فلوس بكرى بطرق ملتوية.

أحيانا؛ تطلبها «جمهور» لحفلة فتذهب، ترقص وتقبض عشَرَين جنيها، وتفوز غالبا بعشاء فخم من بقايا الزبائن.

مرّة رتّبت لها «جمهور» فرصة «دوبليرة» فى فيلم؛ ضربها ممثل مشهور،

وخبطتها سيارة أمريكية، وقبضت خمسين جنيها. باتت فى الأستديو مع الكومبارس، ودخلت غرفة الماكياج. من يومها تعتبر نفسها فنانة، وتنتظر فرصة أكبر.

◆ ◆ ◆

ـ باى بيكو.. هاى بيكو..

◆ ◆ ◆

تغيظ مشاويرها الليلية بكرى.

تصارحه بكل شئ تقريبا، لكنه لا يصدقها ويخمِّن الأسوأ. يتحفز بخشونة وبذاءة، ويحذّرها:

ـ أخشى أن أتسلَّمك ذات يوم من شرطة الآداب.

هى واثقة بنفسها، وتفخر بين صاحباتها بأنها لا تزال بختم ربِّها. أقصى حدود المُباح عندها قبلة للخد، كلمة، لمسة، قرْصة، أىّ مكان إلا الحلَمَة؛ تعرف أنها مفتاح الشيطان.

الآن وبعد عشرة طويلة أصبحت تعرف الوجه الخشن لبكرى، واعتادت شتائمه البذيئة. وهى أيضا صارت أكثر جرأة، ترفض وتشاغب وتشتم، لكنها تفعل ذلك دائما بدلع بنات السينما:

ـ حبيبى يا معفِّن.

كلمة «معفِّن» لها تاريخ فى الكلام بينهما؛ فهو يرفض أى عملية تنظيف أو ترتيب للبيت. يتعلل بأنه يخشى أن تُلخْبط أو تبعثر أشياءه، ويقول إنه يعتبر بقع الطلاء وعناكب الجدران نوعا من الديكور الطبيعى. نبهته عشرات المرات إلى أن البيت معفِّن، وفى النهاية قالت له وهى تشير إلى ملابسه الملطّخة ببقع الألوان والطعام والحروق:

ـ أنت أيضا معفِّن يا بيكو.

بدأت تمارين الشتم بمهارة؛ كانت تشتم وتبوس وتغرى، وحين تقترب يده من مكامنها تهرب وتنهره بمياصة ممثلات الإغراء:

ـ بعد الزواج يا بيكو.

آخر حدوده معها قرصة، وربما آخر حدود قدرته.

منذ فترة طويلة لم تعد المرأة بالنسبة لبكرى ذلك الرحيق والعطر، ولا ذلك الشغف المشبوب، وإنما صارت مجرد تكوين ووظائف؛ آلة لا ينفعل بها وإنما يفتعل القدرة على تشغيلها، ويستعيد من خلالها خيالات ذلك العبق النسائى. تقوده توهّماته أحيانا إلى قبلة ساخنة، تتشنج معها أصابعه على حافة المخدّة، لكنه رغم تدريباته المتواصلة لم يستطع بث تلك الحرارة فى خد نيللى، ولم تترك قرصاته علامات فى لحمها.

كانت نيللى بالنسبة له تذكارا لنساء كثيرات مررن بحياته، يتخيل لها المسارات التي صادفها فيهن، ويستعيد من خلالها حالات الشغف، وانفعالات الغيرة، وعذابات الحرمان. يعيش السيناريوهات مع نفسه، ويفاجئ البنت بين حين وآخر بغضبة عارمة:

ـ لا تستخفِّى بعقلى، أعرفك أكثر مما تعرفين نفسك، وأعرف كل الشياطين التي بداخلك.

أمضى بكرى شبابه فنانا منطلقا بلا وظيفة ثابته ولا مسئوليات اجتماعية، وحرص دائما على تفادى الارتباطات. اضطر مرَّة للزواج من ألمانية لتسهيل إقامته فى بلدها، لكنه غدَر بها بسرعة. ملّ نظامها وبخلها وبرودها وخشونة لغتها، فهرب منها ومن بلدها بعد شهور.

انتقل بعد ذلك إلى فرنسا. كانت بداياته فيها صعبة، قبل أن يصادف

أصحابا يعملون فى مجلات معارضة للسادات فى المهجر الباريسى، فاستقر بينهم وعمل معهم.

اشتغل فى البداية رساما متجولا فى «مونمارتر»، وأقام فى شقة لا تزيد على عشرين مترا مع ثلاثة عازفين متجولين. كان شركاؤه لا ينامون تقريبا؛ يمضون أغلب الليل فى عدّ واقتسام العملات النحاسية الصغيرة التى تسوّلوها منذ الصباح.

أضجره صخبهم ورنين عملاتهم، ففكّر أن يعود إلى الألمانية. اتصل بها ليختبر الأمر، فأخبرته ببرود أنها أنجبت ولدا ربّما كان ابنه، وأنها سمّتـه «دايان»، ونسبته فى سجلات المواليد إلى صديقها اليهودى.

قدّر أيامها أن المرأة تريد إغاظته، لم يتصل بها بعد ذلك، ولم يبال بالأمر على مدى ثلاثين عاما، لكنه الآن بدأ يفكر. يرجِّح أحيانا أن ابنه صار عدوا.

لا يميل بكرى للثرثرة مع أصحابه عن ابن الألمانية، وحين يتحدث يحاول أن يوحى بعدم الاهتمام، وكأنه يعتبر الأمر مجرد نكتة أو اختراع خبيث من خيال المرأة. فهمت نيللى الموضوع من نثار الكلام فى جلسات السمر، وقدّرت أنه سبب تقلّباته الغامضة، لذلك كانت تتلقى انفعالاته غالبا بحنان.

أحيانا تستدرجه للحديث بطرق ملتوية. تمشّط شعر لحيته بأصابعها وتسأله:

ـ من سيرث شقتك هذه يا بيكو؟

وتشاغبه:

ـ تعال نتزوج وننجب ولدا نسميه «شيكو»، يرثك بعد عمر طويل،

ويحفظ اسمك بين الناس؛ «شيكو بيكو باشا».

يعرف بكرى أن «شيكو بيكو» هو اللقب الرمزى للبهلوان البلاستيكى المشهور فى عالم السيرك الشعبى، لكنه يتجاهل الفكاهة الظاهرة فى حديث نيللى، ولا يستبعد احتمالات أخرى ماكرة.

عموما هو لا يهتم بأمر الميراث، ويردد دائما:

ـ من بعدى الطوفان.

◆ ◆ ◆

(عاش بكرى عدميا، دينُه جسده. لا يؤمن بغيب ولا آخرة ولا حساب، ويسخر من العقائد والنظريات ويسميها «تلك الترهات»، ويرى أن الحقيقة لا توجد إلا فى علوم الطبيعة والفنون:

ـ العلم يستكشف الضرورة الطبيعية، والفن يعبّر عن الضرورة الإنسانية، أما ما عدا ذلك فترّهات؛ التاريخ حكايات، والفلسفة خيالات، وكلام المشايخ خرافات، وأبوك السقّا مات.)

لا يسامحه رضوان على استخفافه بالدين، ويهاجمه بضراوة:

ـ هذا كلام ببغاوات الشيوعية.

لا ينكر بكرى أن الماركسية راقته فى شبابه بتأكيدها على مرجعية الحقائق المادية فى تفسير كل الظواهر، لكنه يدرك أيضا أنها كانت بالنسبة له عمليا مدخلا لعلاقات أوسع فى عالم الفن والصحافة.

تحرّك دائما وسط الماركسيين دون أن يتخلى عن حرصه على تفادى أىّ ارتباطات تنظيمية. وحين سافر إلى أوروبا؛ احتمى بمن هاجر منهم للخارج فرارا من مواجهة سياسات السادات، ونشَر رسومه التعبيرية والكاريكاتورية فى صحفهم ومجلاتهم. ولمَّا بدأت المصالحات عاد مع

العائدين، واستفاد بنفوذهم فى الصحف والمجالس الثقافية. حصل بفضلهم على منحة تفرّغ من الدولة بمكافأة سخيّة. لا تزال المنحة تتجدد تلقائيا دون أن ينجز أي عمل؛ تحميه علاقاته. صحيح أن الأيديولوجيا ذهبت، لكن العلاقات الحميمة لا تزال تربط الأصدقاء القدامى.

الآن يستطيع أن يصارح نفسه بأنه يعتبر الماركسية واحدة من «تلك الترهات».

◆ ◆ ◆

لم يكن فادى ونصيف ورضوان من أصدقاء بكرى التاريخيين، لكنهم أخر من تبقوا فى جلسات السمر. وفدوا عليه بصحبة آخرين ما لبثوا أن شغلتهم ظروف الحياة فكفّوا عن زيارته، وبقى الثلاثة ورابعهم أبو شنب تذكارا للبشر وللحياة.

يجمع بين رفاق السمر سخط على الواقع، وإن اختلفوا فى الرؤى والتفاصيل، لكنهم يناقشون خلافاتهم بصخب ضاحك، ويعلو صوت «الهأهأة» دائما فوق أى خلاف.

رضوان أكثرهم ميلا لإثارة الجدل، يختبر عبر نقاشاته معهم أفكار مقالاته وحواراته الفضائية. يقيس الاتجاهات، ويعدّل صياغات الكلام، ويستقى معلومات يطرِّز بها أراءه.

يشاكسه بكرى دائما، ويسميه «النائب الفضائى».

دخل رضوان البرلمان نائبا لحزب الحكومة قبل حوالى عشر سنوات، لكن التبدلات المستمرة فى مراكز القوى داخل الحزب أضعفت فرصَه فلم يتكرر ترشيحه. الأغلب أن تربيطاته المتشعبة وتقديراته غير الدقيقة لموازين القوى ساهمت فى إخراجه من حسابات كل المتصارعين،

وجعلت من الصعب عليهم تصنيفه ضمن «الحرس القديم» أو «الحرس الجديد».

لم يبادره أى من الفريقين بالعداء، وإنما أصبح مهملا فى ترشيحات اللجان الحزبية والبرلمان. يزداد سخطه على الجميع يوما بعد يوم، لكنه لا يجاهر بذلك إلا فى جلسات السمر والخدر. لم يفكر فى الانقلاب على حزبه، كان فتات الحزب الحاكم أشهى عنده من أى مكاسب يمكن أن يحققها فى أى موقع معارض أو مستقل. يكتب الآن مقالا أسبوعيا فى صحيفة قومية كبرى، وتدعمه علاقاته فى الظهور فى الفضائيات، وتسّهل له قضاء المصالح.

هو جاهز للتسجيل فى أى لحظة، يرتدى بذلة كاملة صيفا وشتاء، ويحتفظ دائما بكرافتة فى جيبه، يلبسها حين يطلبه التلفزيون للحديث. لا يضيّع فرصة.

للكرافته تأثير سحرى عليه، تختلف حركاته وكلامه فور لبسها، بل ويشعر أنه يفكر بدماغ مختلف، وكأن الكرافتة إشارة مرور تغلق الطريق أمام شخص وتفتحه أمام آخر. ينطلق النائب السابق بأقصى سرعة، ويدوس كل خصوم الحكومة بكلامه:

ـ هذه شائعات يروجها عملاء مأجورون.

من الناحية الرسمية؛ لم يكن هناك أى تحفظ من الحزب على وجهات نظره المعلنة، فهو لا يزال يحاول كسب الرضى، ويبالغ فى ذلك حتى وإن اتخذت أحاديثه أحيانا أشكالا هزلية.

مرَّة؛ استضافته إحدى الفضائيات العربية مع آخرين فى برنامج حوارى حول استخدام الحكومة العنف ضد المتظاهرين. شتم كل

محاوريه تقريبا، وأكد بثقة أن كل ما يتردد هو مجرد أكاذيب تروجها جماعات منحرفة فى الداخل، وتدعمها تمويلات مشبوهة من الخارج. كان يتحدث بجسارة، بينما المخرج يبث على الشاشة لقطات تسجيلية لهراوات الشرطة و«سنج» البلطجية المؤجرين وهى تطارد المتظاهرين، كذّبت الصور كل كلمة قالها.

أدرك بعد خروجه من الأستديو الفخ الذى أوقعه فيه المخرج، لكنه لم يهتم. كان كل ما يعنيه أن يظل فى دائرة الضوء والرضى، وأن يؤكد باستمرار ولاءه للحزب.

أحيانا يكون له كلام مختلف فى جلسات السمر، ينفث فيه سخطه على الحزب ورجاله وسياساته وصراعاته، لكن بكرى يواجه كلامه باستخفاف، ويقول له:

ـ لا أدرى أيكما رضوان الحقيقى؛ هذا الذى أراه الآن، أم ذلك الذى أسمعه فى التلفزيون.

يشارك المستشار نصيف فى السخرية، قائلا لرضوان:

ـ أريد أن أسمع رأيك مرة أخرى، لكن وأنت بالكرافتة.

هو كان يشاركهم السخرية من نفسه أحيانا، يتحسس الكرافتة فى جيبه وكأنه يتحسس مسدسه، ويهددهم بأنه سيلبسها لهم:

ـ لن يجدى مع أمثالكم، إلا كلام الكرافتة.

ـ هأ.. هأ.. هأ..

دائما ينتهى أى خلاف بالهأهأة.

اللواء فادى هو الوحيد الذى لا تعلو له هأهأة، يكره حديثهم فى السياسة، ويتعلل أحيانا بأنه لم يتابع النقاش بسبب صمم أذنه اليمنى.

تبرق نظراته مثل كشَّافات تحرس حدودا شائكة فى الصحراء، ويتقلَّب وميضها فى عتمة مسكونة بالهواجس والظنون. يحس دائما أن الثغرة تتسع حوله، تتداخل مواقع الفرقاء والأعداء ويضيق الحصار. يحارب وحيدا فى خنادق خياله حتى ينبهه صوت أبو شنب:

ـ مساء العنب يا باشا.

◆ ◆ ◆

«مساء العنب» تنقل الحديث عادة إلى مناطق أكثر خفَّة؛ ذكريات، وسير نساء، وتأملات.

تأملاتهم غالبا بلا موضوع، أقرب إلى تمارين ذهنية على توليد المعانى وتربيط الأفكار، ينفثون خواطرهم مع حلقات الدخان.

حين تحضر نيللى يصبح للكلام مذاق مختلف:

ـ أهلا بالفنانة.

يدللونها بمجون، ويسألونها عن أخبار السينما والحفلات. لا تخفى عليها لمحة السخرية فى باطن كلامهم، لكنها تسايرهم فى الحديث، وتحاول كسب ودّهم فى حدود لا تغضب بكرى. تتصنع صداقتهم، وتحس أنها أقوى بمعرفتهم.

تتفاخر بهم أمام رفيقاتها، وتطلبهم بالموبايل:

ـ أهلا يا سيادة اللواء.. روحى يا سعادة المستشار.. حبيبى يا حضرة النائب؛ واحشنى، لو معك رصيد كلّمنى.

يهديها اللواء فادى أحيانا أصابع روج، وأقلام حواجب، وعلب بودرة. يحصل عليها كعينات دعائية من شركة مستحضرات تجميل يعمل فيها الآن مديرا للأمن. تفرح بعطاياه؛ تتكئ على كتفه وتلاطفه:

ـ هات خدّك يا جميل، تستاهل بوسَة.
وتوشوش أذنه اليسرى:
ـ أنت حبيبى.

كلّمها قيس قبل الموعد مرات كثيرة، وتعمدت أحيانا أن ترد أمام بكرى وأصحابه:

ـ هالو يا باشا، مشتاقة.

كانت عواطفها تثقلها، وتريد أن تبوح بها لأى انسان، وهم أصغوا لمكالماتها العاطفية بشغف ساخر. حكت لهم قصة لقائها بقيس، حدثتهم عن سكنه فى وسط البلد، ووصفت وسامته، وأناقة بذلته الخضراء، وحقيبته الرقمية التى تنتظر تحويلات مالية تظن أنها كبيرة، وقالت لهم:

ـ اندمجنا من أول نظرة، لم أعد أحسّ بنفسى، أتنفس به.

واحتضنت خيالاتها:

ـ فارس أحلامى.

◆ ◆ ◆

فى الموعد التالى أعاد التايور الأزرق والبذلة الخضراء الاستعرض العاطفى الحنون:

ـ قيس باشا.

ـ نيللى هانم.

بدأ اللقاء على سلّم البنك الأهلى أيضا. كان كلاهما سعيدا باللقطة الأنيقة المستعادة؛ التايور والبذلة، والحقيبة الرقمية والتحويل المالى المنتظر. لكن المشاهد التالية أضاعت البهجة المتوقعة.

وقفت نيللى خلف قيس فى الطابور، وسمعت موظف البنك يقول له:

ـ لا أظن هذا التحويل سيصل أبدا. العراق الآن فى ظروف صعبة؛ الحرب على الأبواب، والدنيا هناك «فِرْكِش».

بعد الفرحة جاءت الحيرة، وسألت نيللى نفسها: *«لا بد أنه سيعرف حقيقة وضعى ذات يوم؛ فماذا أقول له؟»*.

حاولت أن تسهِّل الأمر على نفسها على أساس أن الحب يصنع المعجزات، لكن السيناريوهات التى كانت ترتبها فى هذا الإتجاه ما تلبث أن تتلخبط فى رأسها، وتقود أفكارها أحيانا إلى عُقَد مأساوية. دمعت عيناها مع نهايات سينمائية مستعادة: *«وضعى الإجتماعى لا يسمح لى بالاستمرار فى هذه العلاقة يا آنسة»*، وابتسمت مع أخرى: *«اتمخطرى يا حلوة يا زينة»*. أشدّ السيناريوهات عذابا كان سيناريو التضحية: *«صدقنى يا قيس؛ كنت أخدعك، ابعد عنى حتى لا تدمِّر نفسك»*.

أحيانا تضبط نفسها متلبّسة بالدموع.

ثرثرت فى الموضوع مع بكرى وأصحابه، وأدَّت كل تلك الأدوار أمامهم أكثر من مرَّة. بكت بإخلاص أحيانا، وسألتهم:

ـ ما رأيكم؛ أنفع فى التمثيل؟

ليلة رأس السنة لبس العجائز الطراطير الملونة، ومثلوا معها أدوار فتى الأحلام. هى اندمجت، وبكرى أيضا اندمج؛ وقف على السرير ودبدب برجليه راقصا، لكنه انفعل حين أفرط ضيوفه فى الأحضان والقبلات، فرمى الطرطور وطردها:

ـ اخرجى من بيتى يا بنت الكلب، عليك اللعنة.

ضحكت حتى مغص بطنها، وتلوّت من الألم:

ـ آه يا بطنى، كلّه تمثيل يا بيكو.

ظل أبو شنب جالسا بين أقدام الممثلين العجائز لابسى الطراطير، هذا هو موقعه دائما. هو الأصغر سنا، ومقامه بينهم لا يسمح له أن يشاركهم ما يفعلون، هو الخدّام.

كان عبد الله أبو شنب خادما أبديا، شَبَّ خادما في مسجد «ستنا»، وبالتحديد في دورة المياه. كان أبوه إسكافيا يصلح النعال جنب الباب الخلفى للمسجد، وهو لم يصلح لأى عمل. لم تصرفه عن ذلك عاهة ولا نقص في الخلقة، لكنه كان يدرك أن أى سباق في أى اتجاه لن ينصفه، ولن يدفع به لأول الصفوف. كانت همتُه أكبر من كل الأعمال، لكن جهده أقل من أى عمل. لا له قوة وصبر أهل الحرف، ولا يُسر أبناء المدارس. اختار الطريق المفتوح الذى لا يمكن أن يباريه فيه أحد؛ الخِدمة.

لم يهتم أبوه أن يعلّمه حرفته، كانت علاقته بالولد غامضة؛ يعامله بجفاء ويتجاهل وجودَه كأنه لا يعنيه. هو كان يحوم حول أبيه، يحس بالأمان لوجوده، يجلس قربه، ويمد يده ويأكل من طبقه. اكتفى منه بتلك المساحة الصامتة المحايدة.

رغم هدوء الأب وصبره الطويل على عسر الحياة ومذلة مهنته، كان عصبيا في التعامل مع زوجته. أَفْرَط في استخدام قسم الطلاق لدرجه جعلته يتجاوز الحد الشرعي من أول أسبوع. فيما بعد؛ ومع زيادة عُسر الحياة، زادت سرعةُ الإيقاع. كان يمكن أن يقصفها بثلاث طلاقات في نفس واحد؛ العدد الكافي للتفريق بين زوجين.

منذ البداية أحس أن العلاقة فقدت شرعيتها، وعندما حملت المرأة فوجئ بالخبر، بدا له أنه وقع في المحظور في غفلة منه، وأن الولد المنتظر ابن تلك الليالى الحرام؛ وزر يستوجب اللعنة. كان الأمر الشرعى يعنيه كثيرا، قضية حياته تقريبا. ينزوي على فراشه فى ركن الغرفة بعيدا عن

فراش الإثم، ويغوص في عتمته.

تلقّى الاب مولد عبد الله كما يواجه المجرم دليلَ إدانته، كانت الجريمة قد اكتملت، ووأوأة الطفل في حضن أمه دليل حي على المعصية. لم يتهمه أحد، وهو لم يصارح أحدا بوزره، لكن ذلك لم يخفّف إحساسه بالدنس. كان يدرك بيقين رجل مؤمن أن الملاك الجالس على يساره سجل كل شئ في صحائف الأعمال. لم يحاول تصحيح مسار العلاقة، ولم يستطع أن يصارح أحدا بشكوكه. كانت مذلة مهنته قد أوصلته إلى حضيض لا يقدر أن يحتمل معه مهانة إضافية. لقد عاقب المرأة أو بتعبير أدق عاقب نفسه بفراقها جسديا، واحتمل خطيئته بتكتّم معذِّب.

فيما بعد؛ في جلسات العمل الطويلة المملة، كان يقلب الأمرَ على كل الوجوه، وهو يدقُّ المسامير في كل الاتجاهات، أو يثقب الجلد بالمِغْراز ليوسّع طريق الإبرة المعوجّة. أحيانا يتوقف عن العمل ليمسح عرقه، ويزم عينيه محاولا فرز الليالى البعيدة المحيِّرة؛ الليالى التى التبس فيها الحرامُ والحلال.

دافع عن نفسه في سرِّه أحيانا باحتمال أن الولد قد لا يكون ابنه، وفطن بعد فترة إلى أن ذلك لا يعفيه من جريمة الزنا؛ أكبر الكبائر. وبرغم إدراكه لذلك كان يرتاح لهذا الاحتمال، لأنه يحمِّل المرأة وزرا أكبر، ويجعل منه ضحية تستحق قليلا من الشفقة، وربما المغفرة.

مضى متلذذا بإدانتها في تخيِّل كل احتمالات الخيانة، وكان لابد لجلسات التأمل الطويلة أن تمدّه يوميا باحتمالات شتّى. يبتسم لكل خاطر جديد وهو ينخس الجلد القديم بالمغراز والإبرة، ثم يعود إلى الله مستغفرا لخطيئته الخاصة.

كانت صلوات الاستغفار الطويلة التي يرددها في غدوه ورواحه محاولة للتكفير عن الوزر الذي لطّخ تقواه، ولستر جرمه العظيم عن عيون الناس، وكان ذلك الإحساس يروقه أحيانا.

استقبل الولدَ بضجر، أو ربما بكُرْه. لا يذكر أنه قبَّله، أو أنه اهتم ببكائه أو بضحكه. كان يهمله فيحاول الولد لفتَ انتباهه بتنظيف المكان حوله، أو بمساعدة خادم مرفق المياه داخل المسجد. وحين شبَّ الصبى دفعه الأب إلى الاستمرار فى الخدمة، بدا له عمل ابنه المهين كفَّارة إضافية لذنبه هو؛ خطيئته المستورة.

ظل عمل عبد الله تطوعيا تقريبا حتى بعد أن كبر وبرم شاربه، لم يهتم أبدا بالتعيين فى الوظيفة، واكتفى بالهبات. وكان يقول: *«أخدم الناس محبة فى رب الناس»*. طبعا استفاد من المكان بطريقة أو بأخرى؛ جهّز فى إحدى زواياه مكانا لإقامة دائمة، واستخدم مخزن الجرادل والمقشَّات جراشا للموتوسيكل.

◆ ◆ ◆

عرفه بكرى قبل سنوات فى أحد موالد «ستنا»، لفت شاربُه الشوكى انتباهه، فرسمه على علبة سجائر بملامح قنفذ وجسم بغل. لم يفطن أبو شنب للشبه لكنه احتفظ بالورقة فى جيبه، اعتبرها تحية من نوع ما.

تعارفا فى مقهى صغير مسقوف بالجريد والخيش، خلف خيمة الإنشاد الدينى. كان أبو شنب قد خرج لتوّه من حلبة الذكر ليشرب كوبا من الشاى، وكان بكرى يبحث بعينيه عن أحد جرسونات المقهى. قرأ أبو شنب نظراته بإمعان وسأله:

ـ كأن الباشا يبحث عن أحد.

ـ كنت أتوقع أن أرى «شعبان».

ـ ادع الله أن يفك سجنه، ضبطوه قبل أسبوع بكيس ممنوعات، كان يظن أنه كسب صداقة أمناء الشرطة، لكنهم غدروا به.

وعرض عليه خدماته:

ـ لماذا تأتى إلى هنا بنفسك يا باشا؟.. المكان موبوء ولا يليق بمقامك. إذا احتجت أى شئ رنَّ لى رنّة، وستجدنى أمامك قبل أن تقوم من مكانك؛ «شبّيك لبيك.. خدّامك بين يديك»، وهذا رقم موبايلى.

نهض بعد أن أعطى بكرى عيِّنة من بضاعته، ثم دلف إلى خيمة الذكر وهو يتطوَّح من الوجد، وكان صوت المنشد يصدح فى سماوات المدينة:

ـ أنا عبدُكم فترفّقوا
بمذلّتى يا سادتى
إنّى أطعتكمو فما
وزرى؛ أذنبى طاعتى؟!
إن كان ما سطّرتمو
قدرًا فما هى حيلتى
وقد ارتضيت قضاءَكم
وبه اصطنعت مشيئَتى

ظل أبو شنب على عهده لبكرى: «شبيك لبيك». كانت طاعته وسرعته شيئا مثيرا للدهشة، ففى الطلبات العاجلة كان بكرى يسمع تكْتكة الموتوسيكل قبل أن تنتهى المكالمة، ثم يسمع التكْتكة أمام باب البيت قبل أن يتلاشى صدى المكالمة من أذنيه.

أصبح أبو شنب بشاربه الشوكى وجلبابه البلدى وطاقيته لقطة دائمة فى جلسات السمر، وجَلَب معه مكمِّلات اللقطة؛ الجوزة وموقد الفخّار وكيس الفحم. اعتبره بكرى إضافة طبيعية، وكأنه كان طيفا كامنا فى خيال المكان، وانبثق فى الوقت المناسب ليملأ موقعه الشاغر.

فى الغرفة الواسعة سرير ودولاب وكراسى وطاولات صغيرة، جمعها بكرى من محلات العاديات قطعة بعد أخرى. كانت خلطة من أذواق مختلفة؛ عربى، هندى، فارسى، صينى، أوروبى، تبدو لأغلب الناس غير متناسقة.

على الرفوف وفى الأركان مخلّفات جمعها بنفس طريقة الأثاث، بينها جرامافون لا يعمل، وساعات قديمة لا يهتم بإصلاحها ولا بتشغيلها، وأكواب وأباريق نحاسية، ومفاتيح حديدية كبيرة، ومطارق لأبواب بيوت عتيقة.

على الحوائط رسوم قليلة على ورق هى كل ما احتفظ به بكرى من أعماله، بينها أفِيش مسرحية صمّمه فى شبابه؛ وجه على هيئة شباك يتفتّح للضوء.

فى الصالة خلطة أخرى من أثاث قديم. أما الغرفة التى تقيم فيها

نيللى؛ فليس فيها سوى سرير معدنى، وكرسى وطاولة من البلاستيك. كانت الشقة بأثاثها ومعلّقات جدرانها قصاقيص متنافرة، تذكارات غامضة للعالم، للحياة.

لم تكن فى الشقة ستارة واحدة، وشبابيكها الزجاجية مباحة دائما لأضواء النهار وكهرباء الشارع، فبكرى لا يطيق العتمة، يحس دائما أن الضوء يساعده على التنفس، وأنه الدليل الأقوى على الحياة، إشارة ظهوره، وجوده.

◆ ◆ ◆

مسح بكرى زجاج النافذة، وتأمل سرب طيور يسبح فى دفء الظهيرة. كان السرب يتتبع مساقطَ الشمس التى ترشح من شروخ الغمام، وحين تنسدّ مسارات الدفء فى طريقه، يستدير عائدا إلى خرائط الشمس بتغريدة جماعية وخفق جناح.

لم ينشغل بكرى فى شبابه بتلك العوالم؛ الطيور والنحل والأسماك والأغنام. رآها دائما مجرد ديكورات، مكمِّلات سمعية وبصرية للوجود الإنسانى. العالم هو الإنسان؛ صناعة الحياة، الجهد والوعى والإرادة، كل ما عداه لغو وأطياف بلا معنى، قطعان هباء. لم يهتم برسم تلك العوالم، كان الإنسان محور لوحاته.

عاش زمن صناعة الأفكار والتاريخ؛ الأفيشات، الزعماء، السواعد والحناجر والشعارات. كان فى قلب كل هذا الصخب الإنسانى، وكان فنانا مميزا؛ بكرى نافع. رسم النبض والإيقاع، الوجوه والأجساد، تلاوين العزم والتحدى.

أيامها كان يظن أنه قادر على معرفة النهايات. كان واثقا لدرجة

جعلته يرى خط حياته واضحا، كأنه رسمه بيده وعاشه من قبل. كان يبدو لنفسه كقنديل معلّق في نهاية طريق، وهو يمضى نحوه خطوة خطوة، كل خطوة تزيد القنديل وضوحا. يعيش يومه كأنه يضئ جزءا جديدا من نفسه، يخرجه من عتمة التصورات المسبقة إلى النور. كانت خطواته ترنّ فى سمعه بوضوح، وهو يتبختر فى فضاء ذاته؛ بكرى نافع.. بكرى نافع.

ثم جاء زمن المخلَّفات؛ مخلَّفات الثورات والنظريات والشعارات والبشر. بدأ يرسم بشكل مختلف، خلت لوحاته من ملامح الإنسان وتفاصيله، حلت مكانها المخلفات؛ منضدة وبقايا طعام، قلم وأوراق ومنفضة سجائر، قطعة ملابس، منشفة على كرسى، فردة حذاء. الإنسان كان هنا، لكنه غادر اللوحة للتو.

كان هذا هو الخط الذى حاول أن يتبعه فى السنوات الأخيرة، لكن متطلبات الرسم للصحف والمجلات جرّته إلى مساحات تعبيرية مباشرة وأكثر بساطة. الآن كف عن كل ذلك، يراهن على لوحته التى لم تكتمل.

◆ ◆ ◆

يتأمَّل سرب الطيور عبر زجاج النافذة.

تغريدة جماعية وخفق جناح.

يؤمن أنه مسيرة مختلفة غير تلك الكائنات البلهاء، لكنه لا يتوقع لنفسه مصيرا مختلفا. كان عدميا حتى النخاع؛ عدميا وحزينا.

◆ ◆ ◆

تحيطه نيللى بإيقاع مختلف حين تبدأ طقوس استيقاظها المتأخِّر؛ الشبشب، السيفون، الملعقة، الشاى بالحليب، الرائحة الطازجة والصوت الكسلان:

ـ هات سيجارة يا بيكو.

تنفث دخانها فى شعر لحيته وتسأله:

ـ تعرف تفسّر الأحلام؟

ـ والأوهام أيضا.

يستمع بشغف، لكنه يعلِّق بمرارة. لا يستطيع أن يرى فى أحلامها إلا تعبيرا عن شهوات الحياة. يعرِّيها من أى زخرف، ويشير بقسوة إلى تلك الثقوب السوداء فى باطن الخيالات.

ـ حكاية مثل حكايتك مع قيس تنتهى دائما بسهرة وسرير، ثم: *«باى باى يا روح أمِّك»*.

ـ لا تتعجل الحُكم يا بيكو، واسمع الحلم للنهاية: كنَّا نعرف أن قيس أمام البيت وإن لم يطرق الباب بعد، وكانت «ماما ماجدة» فى عشّة الدجاج تلاحق فرخة لتذبحها للضيوف، أما «ماما فاتن» فاختبأت خلف باب خجلا من ملابسها. أنا كنت أتوسل لماما ماجدة أن تكف عن مطاردة الدجاج حتى لا يغطى صياحه على طرقات الباب، وماما فاتن تطلب منى بإلحاح أن أبتعد حتى لا تتلوث ملابسى الجديدة بالدم.

◆ ◆ ◆

«ماما فاتن» و«ماما ماجدة» ليستا مجرد حلم، هما أيضا حقيقتان فى أصل الحياة. فاتن أمها، أما ماجدة فهى خالتها، لكنها تناديها: *«ماما»*، وتحبها بنفس الدرجة تقريبا. تتحدث ماما فاتن دائما عن أختها كقديسة، وتنصح نيللى أن تحافظ على رضاها وتكسب دعواتها:

ـ خالتك لا تزال بختم ربها؛ طاهرة، ودعاؤها مسموع فى السماء.

لم يكن لماجدة إرادة فى قداستها، كانت مضطرة، لم تتذوق بهجة

الحياة. طالت عنوستها فظلت تخدم إخوتها مقابل لقمتها، من بيت إلى بيت، وحين أصبحت شيئا يمكن الاستغناء عنه زوّجوها لعجوز مريض. كان الرجل قد بدد بهجته مع زوجتين، ولم يعد فى مفاصله إلا صرير الوجع، وهى لم تعد تتقن إلا الخدمة. تربض قرب مرقده، تتسمع شخيره وسعاله، وتترقّب توجّعاته. تجنبت دائما أن تتطفّل على رجولته، كانت المسألة بالنسبة لها قد أصبحت مخجلة.

حين مات أخرجها الورثة من البيت قبل أن ينتهى قرآن العزاء. أعطوها خمسة آلاف مقابل تنازلها عن الميراث، وجمعوا ملابسها فى حقيبة، وهى قالت لأختها التى جاءت لآداء واجب المواساة:

ـ خذينى معك يا فاتن، لا أرتاح فى النوم وسط غرباء.

لا تعرف نيللى كل هذه التفاصيل فى حكاية الخالة، فلم يكن هناك من يتحمّس لأن يحكى عنها حتى أختها الوحيدة، أما الأَخْوال فكانت زياراتهم شحيحة وكلامهم قليلا، يمرّون صدفة وبأيد فارغة، يكسرون من قشّ الحصير وينكشون أسنانهم، وينتظرون الشاى طويلا. تبخل عليهم فاتن حتى بالماء. تكره جفاءَهم لها بعد موت زوجها، وتخمّن طمعَهم فى الميراث من بعدها، تعرف أن عدم وجود ولد لها يعطيهم الفرصة فى مشاركة نيللى.

ماجدة نفسها صارت لا تتذكر شيئا تحكيه عن أحوالها، حتى الخمسة آلاف جنيه لا تعرف ماذا فعلت فاتن بها، لا تتذكّرها أساسا. كانت الحياة الواسعة التى تشع داخل الدماغ قد ضاقت جدا، وأصبحت الدنيا بحجم جمجمة ضامرة. نسيت كل شئ تقريبا، إلا تلك الأشياء التى تمنّتها ولم تتحقق، الرغبات التى حرصت دائما على ألا يشعر بها أحد.

تنهمك صامتة فى أعمال البيت، خدمة الدجاج والكنس والغسل، ثم تجلس تحت حبال الغسيل فى حوش البيت. تتنفس خيالاتها فى صمت، وهى تتلصص على الملابس المنفوخة بالهواء. تنهض بعد استراحتها القصيرة لتكرر نفس الأعمال تقريبا. لا تردها فاتن عن فعل شىء إلا الطبخ وغسل الصحون، تخاف على أختها وطعامها من النار، وعلى أطباقها من الكسر.

لا تنسى نيللى أن خالتها كانت تسهر جنبها فى ليالى المذاكرة، تسند ظهرها إلى الحائط وتظل تتنفَّس خيالاتها حتى تنام جالسة. أحيانا تفتح عينيها وتبتسم لأحلامها، وتقلِّب رأسها على الحائط وفى فمها كلام الملائكة.

لم تخبر نيللى بكرى بالكثير عن أهلها، كل ما عرفه منها أن عمها الوحيد قاطعهم بعد أن سجّل أبوها ملكية البيت باسم أمها، وأن أخوالها ظلوا يترددون لأبيها تقديرا لصنيعه مع أختهم، وانتظارا لهداياه التى يحضرها من الكويت فى إجازاته، ثم قلّت زياراتهم بعد أن مات الأب مغتربا فى فترة حرب الكويت.

◆ ◆ ◆

وهى تحكى حلمها لبكرى اهتمت أن تشرح علاقتها بخالتها:

ـ أهلى كلهم زبالة، أما «ماما ماجدة» فشىء آخر، هى أمى الثانية، حنون وطاهرة، وتكلّم الملائكة دائما.

سألها:

ـ هل كانت تحمل سكيّنا فى الحلم؟

ـ أظن أنه كان فى يدها سكّين يا بيكو، وأنا كنت محتارة.

ـ حلمك يفسر نفسه؛ آخر الحكاية دم على فراش السهرة، و«الفرخة» تعرف ذلك بل وتتمناه، لكنها مكسوفة من رغباتها، وخائفة من كلام الناس.

سوَّد كلام بكرى آفاق الأحلام، لكن نيللى عاندته واستدارت تتلمس مسارات الضوء:

ـ أنت لم تره يا بيكو، قيس طيب وليس مغرورا مثل غيره من الأغنياء. وهو مهذَّب جدا، ترتعش يداه حين تلمس جسمى. تصوَّر أنه يناديني بألقاب فخمة: *«نيللى هانم.. آنسة نيللى»*.

ـ أنا فسرت لك هلوسات منامك، وعليك وحدك أن تختارى؛ إما أن تعيشى أيامك، أو أن تعيشى أوهامك.

هكذا هو بكرى دائما، لا يوصيها بشئ، لكنه يسد الطرق فى وجهها، ويتركها فى النهاية أمام خيار وحيد. فهمت قصده فشتمته:

ـ يا معفِّن.

حتى ذلك الوقت؛ لم تكن عند نيللى أىّ إشارات واضحة من قيس فى أى اتجاه. كانت تراهن على لقائهما الأخير، لكن حديث موظف البنك عن صعوبة وصول التحويل المالى من العراق أربك اللقاء. أحبط الكلامُ قيسَ، ونسف خطّتها لاستدراجه إلى جلسة عاطفية فى كافتيريا؛ شاى وقهوة وسيجارة، ونظرات ولمسات، ثم همسة تضىء معالم الطريق.

حاولت أن تهوِّن الأمر عليه، لكنه أخبرها أن ما يقلقه أكبر من مسألة تأخر الفلوس، وقال إنه سيحدثّها عن الأمر فيما بعد. كان مرتبكا وراغبا فى الانصراف. أخبرها أنه يريد إجراء مكالمات دولية لفهم ما يجرى. لم تستطع أن تعرض عليه أن تصحبه إلى بيته أو إلى مكتبه للإطمئنان على

نتائج الاتصالات، كان مجرد عرض ذلك أمرا غير مناسب فى علاقة لم تبدأ بعد، ويمكن أن يوحى بمسارات حرجة لا تتمناها لنفسها.

◆ ◆ ◆

ظلّت المسألة غير واضحة فى ذهن نيللى، وزادتها اتصالات قيس غموضا وارتباكا. فهمت أنه لم يعد يبالى بأمر الفلوس، وأنه يخشى أن يكون الأمر منطويا على كارثة أكبر. مكالماته متحفظة ومتقطّعة، يختفى صوته فجأة، ويعود إليها بعد لحظات:

ـ سورى؛ كانت مكالمة مهمة.

تعرف أن مشاغله كثيرة، لكنها تريد أن تفهم. قالت له:

ـ كلامك يقلقنى ولا أفهم شيئا، لابد أن نلتقى لتشرح لى الأمر بالتفصيل.

وسألته بدلال:

ـ ألا تعتبرنى صديقة يمكن أن تأتمنها على أسرارك؟

ـ بل وأكثر من صديقة.

ـ طريقة كلامك لا تشجعنى على تصديق ذلك، الصديق يسند رأسه على كتف صديقه ويحكى همومه بصراحة، وأنت تحدثنى بالألغاز. أسند رأسك يا حبيبى وصارحنى.

واعتذرت عن خطأها المقصود:

ـ سورى؛ الكلمة أفلتت من لسانى.

ـ أى كلمة؟

ـ تلك الكلمة، أقصد «حبيبى».

ارتبك، كانت حوله أصوات تبرر تلعثمه فى الرد، وهى واصلت

هجومها العاطفى:

ـ واضح أنك مشغول الآن، فلنلتق غدا، أدعوك إلى فنجان قهوة فى كافتيريا. لا أظنك بخيلا، لكننى أدعوك على حسابى.

كان الموعد مناسبا، فالغد يوم «النبطشية الخضراء».

◆ ◆ ◆

لم يسند رأسه على كتفها فى الكافتيريا، وإنما اكتفى بتحسس أناملها بمحبة، ثم تشجع وسألها:

ـ لماذا أعتذرت عن تلك الكلمة؟!

ـ أى كلمة؟

ـ تلك الكلمة فى آخر المكالمة؛ أقصد «حبيبى».

ـ ليس بيننا حتى الآن أىّ شئ يبرر أن أقولها.

ـ صدقينى، كنت أتمنى أن أقولها قبلك.

ـ وما الذى يمنعك؟

سحبت أناملها بعيدا عن يده، وانتظرت.

ـ لماذا سحبتِ يدِك؟

ـ ربما لا يليق بى أن أتصرّف هكذا.

ـ لكنك قلت أنك تحبيننى.

سكتت، وانتظرت قليلا حتى نطق بعينين خجلتين:

ـ وأنا أيضا، لكننى لا أعرف كيف أقولها، أحتاج إلى شجاعة لأشرح الوضع.

قدّرت أنه رجل خام، أو أن لغته العملية تعوقه عن شرح عواطفه.

اكتفت بهذا القدر، وعادت تشبك أصابعها بأصابعه:

ـ سنتحدث عن هذا الموضوع طويلا فيما بعد، الآن حدّثنى عن المشكلة التى تشغلك، فربما أمكننى أن أساعدك على التفكير، وأن أخفف همومك.

◆ ◆ ◆

صدمها حديثه.

عرفت أن الفلوس المنتظرة هى مائتا دولار فقط، تعوّد أبوه أن يرسلها كل شهر من العراق، ليمول بناء بيتهم فى الريف.

لم تستطع أن تخفى خيبة توقعاتها:

ـ أليست لك أعمال فى العراق؟

ـ أبى هو الذى يعمل هناك، وفجأه توقف وصول التحويل وانقطعت أخباره.

ـ كنت أظنك تنتظر تحويلا كبيرا، حقيبتك ضخمة، وظننتك رجل أعمال.

ـ من قال ذلك؟

ـ أنت أوحيت إلىّ بذلك من أول يوم؛ فاكر.

ـ أتذكّر أنك سألتنى: «*هل أنتَ رجل أعمال*»؟.. فجاوبتك: «*بل رجل أثقال*»؛ همومى كثيرة.

ـ وماذا تعمل؟

ـ أعمل فى صحيفة «أضواء الغد».

هو بدا مُحرَجا وراغبا فى تغيير الموضوع، وهى بلعت ريقها واكتفت بهذا القدر. أعطت نفسها فرصة للتفكير، وعادت بالحديث إلى النقطة الأولى:

ـ تبدو لى غامضا، وذلك يربكنى فى التعامل معك.

ـ الأمور كلها غامضة، وأنا نفسى لا أفهم ما يجرى هناك.

ـ لا أقصد العراق، وإنما علاقتنا.

ـ نيللى يا حبيبتى؛ أنت ذكية وتفهمين كل شئ.

نطق أبو الهول الكلمة الصعبة، وتلامست أطراف الأصابع بحنان، لكن نيللى عبَرَت اللحظة الدافئة بسرعة، وعادت تسأله:

ـ ماذا يمكن أن يكون قد حدث لأبيك؟

ـ لا أستطيع أن أخمّن، الموبايلات ممنوعة هناك، والاتصالات مقطوعة. ربما أخلوا المنطقة التى يسكنها لأغراض عسكرية.

ـ وربما كان فى طريق العودة.

ـ لا أظنه يفكر فى العودة حتى فى مثل هذه الظروف، حلم استكمال البيت يسيطر عليه، واتفاقه مع المقاول يلزمه بدفع ألف جنيه شهريا.

ـ قيس يا حبيبى؛ مائتا دولار أو ألف جنيه لا تبنى عشة دجاج فى هذا الزمان.

ـ البيت اكتمل تقريبا والباقى مجرد تشطيبات؛ أبواب وشبابيك وأرضيات ودهان. ثم أن المساحة صغيرة، ستون مترا تقريبا.

ـ عشّة دجاج فعلا.

اكتفت بهذا القدر من التوبيخ، وعادت للمساحة الدافئة:

ـ قيس يا حبيبى؛ خفّف عن نفسك ودعنا نحيا لحظتنا الحلوة. ستفعل كل شئ فيما بعد بنفسك؛ الشقة الواسعة، والسيارة، والرصيد البنكى. طريق الصحافة مضمون.

ـ لكن البدايات صعبة، صعبة جدا.

ـ قيس يا حبيبى، ثق دائما أن نيللى لن تتركك وحدك، ستجدنى دائما إلى جوارك حتى تحقق كل أحلامك، أقصد أحلامنا، أليس كذلك؟

«*قيس يا حبيبى.. نيللى يا حبيبتى*»، سهُلَت الكلمة على لسان العاشقين، وتلامس الأزرق والأخضر بمودة فاضحة فى أكثر من موضع.

◆ ◆ ◆

وهى تفكر فى نتائج اللقاء قدرت أن الأمور سارت بشكل جيد؛ هو اعترف بالحب، ثم أن ما باح به عن ظروفه جعل العلاقة أسهل، وقرّب المسافة بينهما، أوضاعه فى الحياة ليست مثالية، ولا يزال فى بداية الطريق. ما يقلقها الآن أنه لا يعرف عنها شيئا، وهى لا تعرف كيف يفكّر فيها، ولا كيف يخمّن أوضاعها.

طرحت الموضوع على بكرى بصراحة، وسبقته بالكلام قبل أن يسمّم أفكارها:

ـ فى كل الأحوال ضمنتُ الشهرة يا بيكو، الولد حبيبى صحفى، وسيكتب عنّى وينشر صورى لمّا تحين فرصتى فى السينما؛ «فاتنة الشاشة نيللى»، وكلما يكبر أكبر معه.

لم يكن بكرى سعيدا بصبوات البنت، ولم ير فيها موهبة يمكن أن يثق بها. كان يستطيع بخبرته فى الحياة أن يخمّن مصائر أولئك الحالمين الذين ينتظرون فرصة تهبط عليهم من السماء؛ ينتظرون طويلا، ويشيخون وهم يتجولون فى المقاهى والبارات والمخادع، يتصيدون فرصة لدور صغير.

تفادى أن يجرح أحلامها، لكنه سألها:

ـ فى أى جريدة يعمل.

ـ «أضواء الغد».

ـ جريدة تافهة مشاغبة، تشتم هذا وتقبض من ذاك، ولا تهتم بفن ولا ثقافة ولا سياسة جادة. وما اسم حبيب القلب.

ـ أخبرتك ألف مرّة؛ اسمه «قيس»، ولا أعرف بقية الاسم. هو صحفى، ولابد أنك تعرفه.

ـ لا أعرف إلا قيس بن الملوّح.

ـ ربما كان هو يا بيكو، هل تعرفه بجد؟

تحوّلت المسألة إلى فكاهة؛ سخر بكرى من جهلها حتى بما يفترض أنها درسته فى كتب النصوص الأدبية. وقال لها:

ـ قيس بن الملوح يا حمارة؛ ذلك الشاعر الأهبل القديم الذى أفنى عمره فى حب امرأة، ومات بنار الغرام، حتى سمّاه الناس «مجنون ليلى».

ـ ربما كان هو يا بيكو، وخلقَه ربنا من جديد لكى يحبنى مرة أخرى، الولد مجنون بى فعلا.

ـ ربما يا بنت الحمارة، ربك قادر على كل شئ.

حاول بكرى أن يتذكر شيئا من شعر قيس ولم يستطع، فظل بقية النهار ينشد لها ما قاله أحمد شوقى على لسان العاشق المجنون:

ـ يقولون ليلى بالعراق مريضة فياليتنى كنت الطبيب المداويا

ولمّا بدأ الأصحاب يتوافدون؛ صار بيت الشعر لحنَ الطرب الأساسى فى حكايات المساء والسهرة، يقطع به بكرى سياق أى حديث، ويعود إلى موضوع «قيس ونيللى» منشدا:

ـ يقولون ليلى بالعراق مريضة..

فيجاوبه «كُورَس» السمر:

ـ ياليتنى كنت الطبيب المداويا.

لم تكن مشاغبات بكرى مثيرة إلى الدرجة التى افتعلتها البنت، لكن اضطراب أفكارها دفعها إلى نقاط حرجة، وكادت تبكى أكثر من مرة.

حضر اللواء فادى مبكرا، وانتهزت نيللى فرصة انشغال بكرى فى الحمّام فاقتربت من أذنه اليسرى واشتكت له:

ـ هكذا يعاملنى باستمرار يا جنرال، يسخر من مشاعرى ومن أحوالى، ولا أفهم ماذا يريد بالضبط، هل يحاول إذلالى وتكسير أحلامى، أم يغار من قيس؟!

تردد فادى طويلا قبل أن يصارحها بأفكارهُ(قال لها فى البداية إن بكرى لا يقصد إيذاءها، لكن هذه هى طبيعة العلاقات بين الناس فى هذا الزمان؛ كل واحد يقصف من حوله حتى يحمى نفسه.

وشرح لها:

ـ الآن لا أحد يعرف صديقه من عدوه، المواقع تداخلت، وصار القصف عشوائيا.

سمعت بانتباه ولم تفهم تعبيراته العسكرية بدقة، لكنها خمنت أن كلامه ينطوى على تحذير ما. كافأته بقبلة على خده، وهو حاول من جانبه أن يخفف عنها طوال السهرة. لم يشارك فى الكُورَس، وافتعل أحيانا مسارات أخرى للكلام.

◆ ◆ ◆

كان كلام جمهور أكثر وضوحا؛ نصحتها بالتليفون:

ـ ملعون أبو الجميع، المهم مصلحتك وقرشك الذى يسترك. اثبتى فى مكانك يا بنت، ولا تخافى. كل الطرق فى هذا البلد ملتوية، ومليئة بالحفر

والمطبّات. إذا التوى بك الطريق ميلى قليلا، وقبل أن تقعى نطّى.

لكن نيللى لم تحتمل مشاغبات بكرى، انفجرت فى وجهه ذات ليلة وشتمته أمام أصحابه:

ـ أنت معفن يا بيكو، معفن.

طردها، فلبست على عجل وعادت تشتمه قبل أن تنصرف:

ـ تذكّر أنك طردتنى يا معفّن، ولن ترى وجهى بعد الآن.

حاول رفاقه أن يمنعوها لكنه قبض على لحيته ونهرهم بحسم:

ـ دعوها تذهب، لم أعد أحتمل وجودها، ومن الغد ستحلّ مكانها واحدة أخرى.

نزلت في تلك الساعة المباركة من الصباح؛ الساعة التي تغرد فيها الملائكة على الأشجار، وتتأهّب الأرض لدورة جديدة تحت الشمس. أسندت رأسها إلى جذع شجرة وطلبت قيس أكثر من مرة، كانت تنهى الاتصال قبل أن يردّ حتى لا تبدد رصيد الموبايل، وتنتظر أن يتصل هو كما عوّدها. طال انتظارها فلعنت أباه، واتصلت بجمهور:

ـ بيكو الكلب طردنى، سأكون عندك بعد قليل، مسافة الطريق.

◆ ◆ ◆

تلكّأ رفاق السمر فى الإنصراف، خشوا أن يثيروا شكوك بكرى إذا نزلوا بعد البنت مباشرة.

نصحه رضوان بإلحاح أن يتصل بها لتعود إلى البيت، ونبّهه بإخلاص إلى أن الوحدة ستكون صعبة عليه، لكن بكرى عاند بهياج:

ـ وما الذى يضطرنى للوحدة؟.. إعلان من سطر واحد، وتأتيني عشرات البنات، أريد أن أجدد حياتى بواحدة غيرها.

صيغة محفوظة: «فنان كبير يطلب سكرتيرة متفرغة بمرتب مغرٍ».

كان بكرى ينشط فجأة لنشر الإعلان مجانا وبسرعة في الجريدة الكبرى، ويضغط بصداقته القديمة لرئيس التحرير وعلاقته السابقة بالمكان.

زمان كان صديقه يستعين برسومه التعبيرية في صفحات الادب والجريمة ومشاكل القراء. الآن تقلصّت علاقته بالجريدة، واقتصرت على الإعلان المعهود.

صار ظهوره في الجريدة مثيرا للضحك؛ يعانقه رئيس التحرير بالود القديم، ويعاجله ضاحكا قبل أن يطلب:

ـ الإعلان؟.. هات يا سيدي.

يؤشِّر، ويقرأ له:

ـ يُنشر مجانا لمدة ثلاثة ايام، وداخل كادر.

دائما تحول مكالمات أو مواعيد اجتماعات ومقابلات دون استمرار اللقاء، لكن ذلك لا يهم بكرى، تكفيه الاستجابة السريعة لنشر الإعلان مجانا. يعتبر صديقه القديم سندا له، رجل قوى لا يبخل عليه بخدماته في أوقات المرض والمشاكل، وكانت مجاملة الإعلان اختبارا متجددا لدوام العلاقة.

تهبُّ النسوان عليه بعد النشر من كل صنف ولون، أحجام ومقاسات وأعمار ومستويات وظروف مختلفة. يختار حسب مزاجه وقتها، فليست عنده قواعد ثابته للاختيار، وهو لا يعرف ماذا يريد بالضبط؛ ليس عمل السكرتيرة ولا الخادمة، ولا حتى كسْر وحشة الوحدة، ربما شئ أبسط

من كل ذلك؛ مجرد المرأة؛ التذكار.

تورط أحيانا في تجارب غريبة.

جلب له الإعلان مرّة مومسا ريفية محترفة بجلباب أسود وطرحة وشبشب، ظلت تنكش أسنانها بعود كبريت وهو يشرح لها العمل المطلوب، ولما تطرق كلامه للفلوس قاطعته بشخرة:

ـ الأسعار هذا الموسم غير ما قبله؛ كيلو البهيمة المذبوحة بثلاثين، وأنت تريد أن تدفع عشرين للحم بنت حواء؟!

ـ ستمائة كل شهر، الحساب بالشهر.

ـ لكن الجاموسة الآن بالآلاف.

جاراها فى المساومة:

ـ اعتبريه شراء بالتقسيط، كل شهر ستمائة.

لم يعجبها السعر، أو ربما نَفَرت من شكله وهندامه وكلامه، أنهت النقاش ونبَّهته لخطأ حساباته:

ـ تلميذ المدارس في بلدنا يدفع أكثر من عشرين، وهو لا يفضح المرأة، ولا يهدّ حيلها مثل العواجيز، ولا يحرّكها من بيتها. أما الخلايجة فشئ آخر، ربّنا يوعدنا؛ ذهب وكسوة وهدايا وريالات، كنت أظنك مثلهم.

لم يهتم بوقاحتها، ربما أعجبه الدور. سألته عن اسمه فجاوبها بوقار ساخر:

ـ «بكرى» يا هانم.

ـ وماذا تعمل؟

ـ فنان يا هانم.

ـ «شكوكو» يعنى؟!

تفحّصت ملامحه طويلا بريبة وقالت:

(ـ شكلك كذاب؛ لا أنت فنان ولا اسمك بكرى، وأظن أننى رأيتك وعاشرتك من قبل؛ عربجي واسمك عوض، لكن يبدو أن الله فتح لك باب الرزق، وسكنت فى العالى.)

قلّت أدبها، لكنها لم تغادر مكانها:

ـ جئت من الشرقية، من بعد بلبيس، كيف أعود الآن.

ثم فردت جسدها على السجادة وتأهّبت للنوم:

ـ الصباح رباح.

لكن صباحها الرابح لم يطلع إلا بعد ثلاثة أيام؛ احتلت خلالها البيت دون اهتمام بإبداء أى أسباب. هو أيضا لم يهتم، وربما كان مسئولا عن ذلك بدرجة ما، ففى الصباح التالى كان مشغولا بلوحة جديدة، هى اللوحة التي ظل يصارع فراغها حتى النهاية.

لم يفعل الكثير؛ جرح بياض القماش بخيط أسود، مشبوك بجمجمة فارغة يقطر منها ما يشبه أحشاء متعفنة. كانت تلك أولى ضربات الفرشاة فى اللوحة. ظل طويلا ينتظر الومضة التالية، وهو يتأمل المرأة المستلقية على السجادة القديمة بين رماح الفرسان وكلاب الصيد.

حين استيقظت المرأة كان فى قمّة تأملاته، اندهشت من نظراته، لمّت الثوب الأسود على جسمها وحذّرته:

ـ إيّاك أن تحبّنى يا موْكوس، أنت غلبان ولن تقدر علىَّ ولا على مصاريفى.

وأمرته بحسم:

ـ قم، جهِّز الشاى. حرّك جسمك، ولا تجلس هكذا مثل «أبو الهول».

فرضت نفسها على البيت ثلاثة أيام. تزايدت جرأتها ساعة بعد ساعة، وهو تركها تفعل ما تريد؛ تتمطى وتأمر وتطلب:

ـ الشاى.. الغداء.. اطلب لنا سجائر يا سى الفنان.. كارت موبايل..

تقبَّلها ببساطة، بل وتجاوب مع طلباتها أحيانا. كان في حاله خاصة تسمح له بقبول أشياء كثيرة، حتى دعابتها السمجة التى كررتها كثيرا:

ـ أنت عوض العربجى بشحمه ولحمه، نفس السحنة ونفس الفيلم، وأقصُّ شعرى لو كنت غيره.

رن موبايلها فى اليوم الثالث فرحلت. اكتفت منه بتكاليف المواصلات، ووعدته:

ـ سأزورك من حين لآخر لأطمئن عليك، أنت غلبان مثلى، وربما أكثر.

تزوره حين لا تجد مأوى، تحتضنه بخشونة حتى توجع عظامه، وتقول له:

ـ «*الأعمى يقول للأعمى: ليلة بيضا اللى تجمعنا*».

أعدّ بكرى صيغة الإعلان الجديد لكنه لم يسع لنشره؛ ظل ينتظر عودة نيللى. زاد قلقه ساعة بعد أخرى، لكنه تحمّل بعناد، وتلكأ فى الاتصال بها.

يصارح نفسه الآن بأنه كان قاسيا.

هى أيضا تغيّرت أفكارها عند جمهور، صارحت نفسها فى النهاية بأن ما حدث لم يكن يستوجب كل هذا الانفعال. ظلّت تترقب اتصاله.

◆ ◆ ◆

استقبلتها جمهور فى ذلك الصباح بفتور وضجر امرأة نائمة. قالت لها بحسم:

ـ لا تفتحى فمك بكلمة؛ دعينى أكمل نومى، ثم تحدّثى كما تشائين.

أفاقت عند الضحى، مارست طقوس يومها الجديد بكسل، وشربت قهوتها على مهل، ثم استمعت لحكايات البنت وهى تربّت ظهر قطتها، وتستمتع بسريان الهرير فى أناملها.

خلطت نيللى فى الكلام بين قيس وبكرى، فضجرت جمهور وطلبت منها أن تكف عن ذكر قيس، وأن تركّز كلامها فى الموضوع الأهم.

سخنت نيللى الكلام عن بكرى، وبدأت بأنه يتحرش بها باستمرار. ضحكت جمهور وحدّثتها عن العفريت الذى شاخ وجلس على الرصيف عاجزا، ومر به شاب يتفجر قوة وحيوية فقال له: *«خد بيدى يا ابنى علشان أقوم أخوّفك»* وسألتها:

ـ هل فهمت كلامى؟

ـ فهمت ياخالتى.

بلعت ريقها ثم استأنفت شكواها:

ـ ثم أنه يتهمنى دائما، ويسخر منى، ويهيننى أمام أصحابه.

ـ هذا أيضا من شغل العفاريت الشائخة، وماذا بعد؟

وصلت نيللى إلى أهم نقطة:

ـ طردنى، لخْبط حياتى.

ضجرت جمهور من الكلام، وقالت لها:

ـ أنت عارفه أنه سيتصل كعادته ويطلب منك أن تعودى. إذا كان الحال عاجبك ارجعى، وإذا لا يعجبك ابحثى عن طريق آخر.

ونصحتها بطريقة غير مباشرة:

ـ مسكن وستمائة جنيه وأكل وشرب بلا شغل ولا جهد، ماذا تريدين أكثر من ذلك يا بنت فاتن؟

ـ وماذا أفعل الآن؟

ـ انتظرى حتى يتّصل بك، وسأتولى أنا الرد عليه.

لم تأت الرنّة المنتظرة إلا فى الليل التالى؛ حبست نيللى أنفاسها ونبّهت جمهور:

ـ هو؛ بيكو.

تناولت المرأة الموبايل وأخبرته أن البنت مريضة ونائمة، ثم عاتبته على قسوته:

ـ لماذا تكسر قلبها وهى تضعك فى مقام المرحوم أبيها؟.. لو عندك نصيحة قلْها بلسان أب، لكن لا يصحّ أن تجرحها أمام ضيوفك، ولا أن تطردها فى أواخر الليالى.

سمعت منه وسمع منها، وعاد يسألها:

ـ أهى مريضة حقا؟

ـ جدا يا بكرى بيه؛ أنت طردتَها وقت الفجر فلفحها البرد. هى نائمة الآن، أخذت الدواء ونامت، ولا أستطيع أن أوقظها.

طلب بكرى العنوان حتى يحضر بنفسه لاصطحاب البنت، لكن جمهور ردّته بلطف:

ـ ظروفى لا تسمح أن يدخل بيتى رجل غريب، ثم أن البنت مريضة، ولا تزال معاندة. دعها عندى يوما أو يومين حتى يروق مزاجها، وتنسى ما فعلته بها.

هلّلت نيللى للمكالمة بشقاوة، وضحكت حتى مغص بطنها، فرمتها جمهور بالموبايل، وفضحت مكرها:

ـ الرجل يغار عليك، وأنت عارفة يا بنت فاتن، وتزيدين ناره بدلعك مع أصحابه وبالحديث عن قيس.

وقالت لها:

ـ لابد أن أراه لأحكم عليه عن قرب.

◆ ◆ ◆

كانت جمهور رغم وداعتها وبراءة ملامحها ذات خبرة ماكرة بالحياة والرجال. تزوَّجت فى بداية حياتها القاهرية عازفا كان هو كل دنياها، ورضاه منتهى آمالها. لكن لمّا دخلت دنياه أحبَّتها أكثر منه؛ ماله وقماشه وطعامه، صار همّها أن تحافظ على دنياه بكل وسيلة. وحين انتقلت الدنيا إلى غيره؛ انتقلت هى أيضا إلى غيره. جرت من دنيا إلى دنيا، وتزوجت أكثر من مرة دون أن تنجب. كانت زيجاتها المتكررة نقلات عمل، فرص

وخبرات ومجالات أوسع، ترقيّات فى الحياة.

الآن تملك زينة الحياة؛ شقة وسيارة ورصيد فى البنك، وتدرك أن دنياها صارت مطمعا للرجال. تتفادى الشراك بحذر دون أن تقطع حبال المودَّة، وتحتفظ بعلاقات فى كل الإتجاهات، وتحافظ على هندامها وزينتها وصلواتها. تميل للوحدة، لكنها لا تزال متأهبة لأى فرصة جديدة؛ أى ترقية جديدة.

ينطوى حضورها دائما على ترحيب بكل ما حولها، فحتى وهى مدبرة تبدو كأنها مقبلة عليك بهزّات أردافها، تشغل البصر حتى آخر رعشة. وحين تكون متعبة ومسترخية تبدو أكثر جمالا، ذلك الكسل الراغب، الفتور الدافئ الذى لا يأخذ ولا يطلب؛ يعيش نفسه.

راودها فى شبابها حلم أن تصبح مغنية، وشاركت فى «كُورَس» الفرقة التى كان يعمل بها زوجها الأول؛ العازف. انصرفت بعد فترة عن طموحها، ربما لأن ثقتها بموهبتها لم تكن كبيرة. لكنها تفسّر الأمر لنفسها بأنها اكتشفت أن الموهبة تضعف صاحبها، وتجعله فى احتياج دائم لرضى الآخرين؛ المؤلف والموسيقى وصاحب الصالة والجمهور. اختارت أن تكون فى الجانب الأقوى، أن تكون هى الجمهور.

لم تتنازل عن موهبتها تماما، وإنَّما حوّلتها بخبرة امرأة مدرّبة على الحياة إلى رصيد شخصى. اختزنت إحساسها الموسيقى فى خلاياها، وحوَّلته إلى نبض خاص، إيقاع خاص يضعها دائما فى حالة انسجام. تكمُن فى نفسها وتستسلم للنغم، وجنبها قطتها المدللة تهرّ وتعيد شحن خلاياها.

كان استرخاء جمهور لقطة سينمائية مبهرة لنيللى، حاولت أن تقلّدها ولم

تنجح. كانت سرعة أفكار البنت تجعلها تتململ كثيرا بانفعالات مختلفة، وربما كان الوجع الذى تحس به أحيانا يَجرح كسلها، ويُجبرها على تعديل أوضاعها باستمرار، لا يساعدها على الاسترخاء.

◆ ◆ ◆

لاحظت جهور تململها لكنها لم تشجعها على الكلام، كانت تخمّن أنها تفكر فى قيس وتتحيّن فرصة للحديث عنه، فكلّفتها ببعض الأعمال المنزلية لتتفرّغ هى لنفسها.

لم تغفر نيللى لقيس رنّاتها الضائعة تحت الشجرة فجر ذلك اليوم. وبّخته بقسوة حين اتصل بها فى المساء، وقالت إنها كانت فى ورطة وهو خذلها بعدم مجاوبته لها. أفزعته كلمة «ورطة»، وحاول أن يخمّن ما حدث، وهى حرصت على ألا توضح له أى شئ؛ تركته يتخبّط فى تخميناته وظّلت تجلده بالكلمة: «*ورطة.. ورطة*».

راقها توتّره من أجلها؛ ظل يسألها عما جرى وهى متمسّكة بالكتمان. لم تكن تنوى أن تخبره، وتتعجب الآن لماذا اتصلت به فى ذلك الفجر، وماذا كانت ستقول له. أحيانا تحيّرها نفسها.

قالت:

ـ كانت مشكلة وانتهت، وذلك غير مهم الآن، الأهم أن تفسر لى لماذا تجاهلت رنّاتى ولم تتصل بى طوال النهار.

اعتذر لها بأن الموبايل كان بلا رصيد، وأنه انتظر حتى يذهب إلى الجريدة ليتّصل بها.

تعجّبت:

ـ طوال النهار وموبايلك بدون رصيد!!

ـ طبيعى؛ يحدث هذا كثيرا.

ـ ربما يحدث لى أو لغيرى، أما لصحفى مثلك فذلك أمر غريب؛ صحفى بدون رصيد!!

ـ نيللى يا حبيبتى، واضح أنك أخطأت فهم كلامى، لست صحفيا حتى الآن.

ـ لكنك أخبرتنى أنك تعمل فى صحيفة «أضواء الغد»؟

ـ صحيح.

ـ وماذا تعمل فى الصحيفة؛ قارئا؟!

تماسك وواجه سؤالها:

ـ موظف اتصالات.

ـ أنا حمارة ولا أفهم بسرعة؛ اشرح لى ماذا تعمل بالضبط.

ـ تليفونات، «سويتش».

ـ صارحنى؛ هل معك شهادة؟

ـ ليسانس الحقوق.

ـ وما يجبرك على هذا الوضع؟!

ـ هذا هو العمل المتاح الآن، وهم وعدونى بنقلى إلى الكادر الصحفى حين تُتاح الفرصة.

ـ فهمت الآن لماذا تطاردنى فى الليل: *«آلو.. آلو»*، ويختفى صوتك فى النهار. ولماذا كنت تقول لى دائما: *«رنى واقفلى، وأنا سأطلبك»*، كنت أظنه كرما منك، خدعتنى.

لم يقرّ بالتهمة:

ـ تذكرى جيدا أننى اخبرتك أننى أعمل فى صحيفة، ولم أقل أننى صحفى، لم أكذب عليك.

ـ لم يخطر ببالى أنك مجرّد عامل سويتش، «سوشو أفندى».

كان متململا من طول الحديث، وكلامه هامس ومتقطع. اكتفت نيللى بهذا القدر، وأعطت نفسها فرصة لاستيعاب الموقف، وهو ألحّ عليها:

أكثر.

* * *

لم تفلح نيللى بإلحاحها فى أن تستدرج جمهور إلى الحديث عن قيس طويلا. قالت لها المرأة باقتضاب:

ـ اصبرى يا بنت؛ إذا حقق مراده نفتح الباب، وإن خاب أمله نقول له: *«باى.. باى يا شاطر»*.

ـ لكننى أحبه بجد يا خالتى.

ـ ليس هذا ما يهمنا الآن يا بنت فاتن، مشكلتنا أكل العيش والمسكن والمرتب، وموضوعنا الآن بكرى.

تفرّغت جمهور بعد ذلك لأعمالها، اتصلت بالبنات ووزعت عليهن مواعيد الحفلات، وحذرتهن واحدة بعد أخرى:

ـ تحضرى الحفلة وترجعى لبيتك، المسخرة لا

أغلبهن من بنات الجامعة، تعينهن العشرون جنيها على تدبير أمورهن ومساعدة أُسَرَهن، ولهذا تعتبر جمهور تشغيلهن عملا خيريا. أحيانا تقوم بزيارات تفتيشية للملاهى لتضمن حسن سير البنات. تهمّها سمعتها.

تعرف نيللى أن بعض البنات يتجاوزن الحدود مع الزبائن؛ بوسة وحضن وكلمتان من أجل توصيلة بسيارة آخر السهرة. أحيانا تصل الأمور إلى فتح «السوستَه»، عشرة أو عشرون جنيها. تعرف نيللى ذلك من ثرثرات البنات، لكنها لا تبوح بشئ لجمهور، ودائما تقول لها:

ـ بناتك يا خالتى آخر نظافة، عشرة على عشرة.

لا تضمن إن وَشَت بهن ماذا يمكن أن يقلن عنها؛ «الكلام ببلاش».

صحبت جمهور نيللى إلى بكرى، وقالت له بالتليفون قبل أن تذهب:

ـ مكالماتك تحرجنى يا بكرى بيه، ولهذا سأضغط على البنت وأصحبها بنفسى إليك، برغم أنها لا تزال مريضة وغضبانة، ولى معك كلام عندما أحضر.

لفّت نيللى رقبتها بكوفية، وكحّت وعطست وهى تدخل الشقة، لكن بكرى تجاهل التمثيلية، واهتم أكثر بجمهور. جاءت بفتنتها الكسلانة، ومؤخرتها الشامخة، وشخْلَلة ذهبها، ومعها علبة حلوى، وهو استقبل حضورها الفاتن بحماس بهلوان يحجل أمام راقصة فى زفَّة.

استغربت هيئته وطريقته فى الاستقبال، ونفرت من أثاثه ولوحته الكئيبة.

ضايقها وَشِّ السيفون المستمر، وأصوات تقاطر المياه من صنابير الحمام والمطبخ، وصخب الآلات التى تعمل فى دعائم الكوبرى الذى يمدّونه من قرب مسكنه إلى ضفة نيل المعادى. عموما لم تكن مرتاحة لإيقاع المكان، لكنها جاملته:

ـ ما شاء الله، شقتك واسعة يا بكرى بيه، وبيتك متحف.

ـ كل قطعة من هذا الأثاث تساوى الآلاف، لكننى اشتريتها من محلات العاديات بأسعار زهيدة.

حاول أن يشرح قيمة مقتنياته، لكنها صرفته عن ذلك بمكر:

ـ مثل هذه الأشياء لا يعرف قيمتها إلا فنان مثلك، لكن بكم اشتريت الشقّة؟

ـ الآن تساوى الكثير، وبعد انشاء الكوبرى ستزيد، ربما تصل إلى مائتى ألف أو أكثر.

ـ ربنا يُزيد ويُبارك، أليس لك أولاد؟

ـ احتمال.

ـ وهل يوجد أب لا يعرف أبناءه؟!

ـ أظن أغلب الناس كذلك.

هى لم تفهم تماما، فقدّرت أن جوابه مجرد إشارة فجّة إلى شقاوة الشباب. وهو لم يشأ أن يحدّثها عن حكاية ابن الألمانية. حاول أن يحدِّثها عن فلسفته فى الحياة، لكنها صرفته عن الموضوع، وقاطعته بلطف:

ـ لماذا لا تنظر إلى البنت ولا تكلّمها، وكأنها غير موجودة فى المكان؟!

وأمرت نيللى بلهجة ساخرة:

ـ اقلعى طاقية الإخفاء يا بنت حتى يراك «البيه».

عاتبته على قسوته على البنت، ونبهته بمكر إلى أنها لم تكن لتعيدها إليه لولا إشفاقها عليه من الوحدة، وقالت له:

ـ هى أيضا كانت قلقانه عليك برغم زعلها منك.

ولما اشتكى من تطاول البنت عليه تبسّطت معه:

ـ جرى ايه يا راجل، أنت لافف الدنيا، وعارف دلع البنات.

ثم لمّت الموقف بسرعة، واستعادت لهجتها الرسمية ووقارها:

ـ أليس كذلك يا بكرى بيه؟

حرص على أن يقبِّل أطراف أصابعها عند الوداع، وهى اهتزَّت بضحكة مكتومة:

ـ لولا أننى أعرف أنها قبلة بريئة ما سمحت لك، عموما مثل هذه

القبلة لا تنقض الوضوء. باى باى يا بكرى بيه.

◆ ◆ ◆

شكّلت جمهور إحساسها ببكرى بطريقتها الخاصة، وقالت لنيللى بالتليفون:

ـ رجل نشاز، إيقاعه ملخبط.

هى تحسّ الناس بطريقة غريبة؛ تصغى لكلامهم لكنها تهتم أكثر بإيقاع الصوت وإيماءات الجسد. تربط ذلك بإيقاع المكان؛ تلك الموسيقى الخلفية التى ترافق مشاهد الحياة، وتتسلل إلى أعماق السكان وتبطّن أحاسيسهم.

لاحظت أن مشاعره غير واضحة، وأن إيماءاته تتضارب مع سياق كلامه؛ فابتساماته غالبا فى غير موضعها، وأحيانا تصاحب عباراته الرصينة إشارات بذيئة، خاصة عندما حاول أن يحدّثها عن فلسفته فى الحياة.

هى موهبة خاصة؛ طريقة غريزية فى الفهم، لا تستطيع أن تشرحها لكنها تحسّها.

عبّرت عما لا تقدر على شرحه بجملة بسيطة:

ـ مشوّش، وغير واثق من أى شئ فى حياته؛ مسكين.

◆ ◆ ◆

وقرأ بكرى ملامحها على طريقته..

على وجهها آثار ابتسامة لامرأة جميلة مشاكسة، امرأة تعمدت لزمن طويل ألا تنطبق شفتاها، وأن تلوِّنهما دائما بإيماءات الدهشة والخجل والدفء. جانبيا يختلف المشهد كثيرا؛ تبدو ابتسامتها مشفّاة من الفرح، والشفتان المفترتان تعبيرا عن حالة دائمة من الترقب، وقد غرس الزمن

فى حوافها تجاعيده الشوكية بعناية وقسوة. وحين تتكلم تبدو فى أطراف شفتيها رعشة تنم عن شئ من الاحتراس، أو ربما الكذب.

وصفها لأصحابه بأنها امرأة من خريجات كباريهات الدرجة الثالثة، تحب الذهب والفلوس، ولا تزال طريّة وتقدّر الرجال.

سمعت نيللى الكلام فلكمته ونهرته:

ـ ماذا تقول يا معفّن؟!

ـ أنا لا أسبّها يا بنت الحمارة، فهذا النوع من النساء يعجبنى.

ـ حاسب فى كلامك؛ خالتى جمهور ليست كما تظن، هى حاجّة، ولا تسمح لرجل أن يلمس ظلّها إلا بشرع الله، امرأة عشرة على عشرة.

ونقلت الكلام لجمهور بالتليفون:

ـ يقول عنك طريَّة يا خالتى.

ـ الله يخيِّبك ويخيّبه، ماذا يقصد يا بنت؟

ـ بصبصة يا خالتى.

أعجبها التعبير، لكنها بلعت أعجابها وتجنّبت الشبهات. علقّت بسخرية:

ـ رجل مخلّع، كل عظمة من عظامه تتحرك فى اتجاه غير الأخرى، نشاز.

وسألتها:

ـ أليس له أهل؟

ـ مقطوع من شجرة.

ـ عجوز ووحيد، يحتاج امرأة تلاعبه، وتأخذ حبّة عينه.

واختبرت نوايا البنت:

ـ سايسيه يا نيللى، هاتى آخره.

ـ أخاف أن يحبنى بجد يا خالتى.

ـ وماذا يجرى لك لو حدث ذلك؟

ـ أنا أحب قيسَ، أحبه بجد وكأن ربّنا خلقنى من أجله. أحبه رغم أن حكايته ملخبطة.

ـ يا بنت؛ أنا لا أقول أَحبِّى بكرى، لكن دعيه يتعلّق بك كما يشاء، والمثل يقول: *«إن قابلك الأعمى خد اللى معاه، أنت مش أحنّ عليه من اللى عماه»*. فاهمه يا بنت؟

ـ لا أفهم جيدا يا خالتى، اشرحى لى.

ـ أحسن أنك لا تفهمين. عموما هو مقسوم لواحدة غيرك تفهمه وتخطفه. يكفيك قيس، وإيّاك أن يلعب بك فى النهاية.

طوت صفحة قيس بسرعة، وعادت تسألها:

ـ ماذا قال عنى سى بكرْى غير ذلك؟

ـ لم امكِّنه من الاستمرار فى الكلام؛ شتمتُه وقلت له: *«نسوان بلدنا لحمها مرّ»*.

ـ شاطرة يا بنت.

◆ ◆ ◆

رغم كلامها عن «اللحم المرّ» كانت نيللى تتذوّق حلاوتها؛ تتحسّس طراوة لحمها، وتعتصر نشوتها فى السرّ.

تثور مشاعر نيللى أحيانا على قيس، لكنها تعود وتصارح نفسها بأنها لا تستطيع أن تلومه؛ ظروفه لا تختلف كثيرا عن ظروفها.

قدّرت فى النهاية أنه آن الأوان لتصارحه بحقيقة أوضاعها. كانت مكسورة الخاطر لكنها راضية.

ـ أهلا قيس.

ـ أهلا آنسة نيللى.

حاول أن يعيد شرح ما قاله فى مكالماته الطويلة، لكنها صرفته عن ذلك:

ـ الآن؛ لا أستطيع أن أفهم، أريد أن آكل أولا على أى شئ ستعزمنى؟

نَكَش داخل جيبه طويلا، فاختصرت الوقت وجرّته من يده باتجاه مطعم «فلفلة» ووبّخته:

ـ فقرى، وأنا قبلت العزومة.

أكلت سندوتشات الفول والطعمية على مهل، وهى واقفة تتأمل وجهها في المرايا، وتتدبّر فرصها في الحياة، وحين حاول الكلام أسكتته:

ـ انتظر حتى نأكل، وبعدها مشوارنا في الكلام طويل.

بعد الأكل لفّت يدها حول وسطه واستجوبته، وهو شرح كل شئ بوضوح، وأكّد:

ـ اشتغالى بالصحافة مضمون؛ مؤهلى يسمح لى بذلك، ووجودى بالمكان يسهّل لى الفرصة، المسألة مسألة وقت.

بلعت الكلام بصعوبة، ثم قالت:

ـ لو تحمّس لك بيكو لساعدك كثيرا، هو فنّان مشهور، علاقاته كثيرة ويعرف صحفيين كبارا. لكن المشكلة أنه لا يطيق سماع اسمك، ويبدو أنه يغار منك.

ـ ولماذا يغار عمّك منى؟!

ـ بصراحة؛ هو ليس عمى بالضبط.

بلعت ترددها، وعادت تقول:

ـ من حقك الآن أن تعرف كل شئ عنى؛ بيكو ليس عمى.

صارحته ببعض تفاصيل حياتها على مهل، كانت تمر بنظراتها على وجهه بسرعة، وتتوقف عن الشرح لتجدِّد شجاعتها، وتسأله:

ـ فاهم؟

صدمهُ الكلام، ووقفت حكاية بيكو فى زوره:

ـ كيف تقيمين معه فى شقّة واحدة.

ـ هذا هو الشغل المتاح الآن، ماذا أفعل؟

ـ وماذا عن الدراسة؟

ـ انس الجامعة يا قيس؛ لم أدخل بابها منذ خمس سنوات، ولابد أنهم فصلونى. ثم ماذا سأكسب بالشهادة؛ أشْحَتُ بها فى الشوارع وأقول: «*لله يا محسنين*» ؟!

وتنفّست أحلامها:

ـ طريقى فى الفن مضمون، أنا موهوبة وحلوة كما ترى، ووجود خالتى جمهور جنبى يسهّل لى فرص السينما؛ المسألة مسألة وقت.

عاد بها إلى الموضوع الأهم:

ـ لكنه رجل فى النهاية.

ـ ليس رجلا بالضبط، لكنه شئ يشبه ذلك.

ـ لا أفهم كلامك.

ـ هو عجوز ومخلّع يا حبيبى، تجاوز الستين بكثير. آخر حدوده فى الشقاوة قرْصة، وربما مرَّة كل شهر.

ـ حتى الآن؛ لا أفهم ماذا تعملين عنده بالضبط؟

ـ شاى، طبخ، وأغلب الوقت يحكى ويسلِّينى. أحيانا يمثل دور الغضبان وأتجاوب معه، وساعات يحبّنى؛ كلّه تمثيل.

أغلق فمه ولم يرد، لكنه ظل يتشمم رائحة الكلام بامتعاض. حايلته:

ـ قيس يا حبيبى؛ أنا صارحتك بكل شئ فلا تجعلنى أندم.

ثم لفَّت يدها حول ظهره وخبطته بردفها، لم تبال بالعابرين:

ـ دمك ثقيل، لكننى أحبك رغم كل شئ.

كان الغبار يسمّم زرقة السماء، والتايور الأزرق يحاول أن يلامس البذلة الخضراء برقَّة.

ظلّ قيس نافرا، أصرّ على أن يعرف «الورطة» التى حدّثته نيللى عنها فى ذلك اليوم، فهوّنت عليه الأمر:

ـ لا تشغل نفسك، كانت مشكلة مع بيكو وانتهت، جمهور صالحتنا. تضايقه علاقتى بك، فهو يعتبرنى أمانة عنده، ويخاف علىّ جدا. وقتها كنت أريد أن أدردش معك.

أفلتت يدها من يده، وتلكّأت فى المشى وهى تتحسس نفْسَها. سألها:

ـ تعبانة؟

ـ طبعا تعبانة، جرحتنى بأسئلتك.

ـ سورى.

بلعت اعتذاره بزجاجة بيبسى؛ تلكّأت أمام كُشك مثلجات، وأجبرته على فكّ خمسة جنيهات:

ـ عطشانة، يخرب بيت الفول؛ نفخنى.

ظلّت تتوجّع:

ـ آه يا بطنى.

لم تستطع أن تتحمل صمته فنفرت:

ـ الآن لابد أن أنصرف، تعبانه بجد.

وودَّعته بفتور:

ـ مع السلامة يا فقرى.

ثم نادته من شباك التاكسى:

ـ آلو.. آلو..

وكرّرت الكلام وهى تضع الموبايل على خدّها وتبتسم بحنان:

ـ آلو.. آلو، بجدّ.

فهم أنها تعطيه الإذن لمواصلة الاتصال بها. ابتسم.

قالت لسائق التاكسى:

ـ غلبان؛ همّه تقيل، وحظّه قليل.

كلام بعد كلام، ثم تجرّأت عليها يد السائق فنهرته:

ـ بُصّ قدامك يا أسطى، طريقك كله مطبَّات.

لم يكف السائق عن مضايقتها طوال الطريق، فتحمَّلته بصبر حتى وصلت، ثم رزعت باب السيارة خلفها وشتمته:

ـ يا بن الحرام يا بهيمة، خسارة فيك الشتيمة.

رغم تعبها وارتباكها ركبها النزق، طبّلت على باب بكرى، ودخلت وهى تهز وسطها وترقص على إيقاعات صنوج وهمية استعادتها الذاكرة من أفلام قديمة:

ـ «يا حلاوتك يا جمالك.. خلّيت للحلوين ايه».

وقدّمت نفسها لبكرى بالصفة الجديدة:

ـ محسوبتك فقرية هانم.

ـ حبيب القلب ضربك بمبه؟

ـ لا، لكنه ظهر على حقيقته؛ فقرى.

حَكَت، ونغمت له خُلاصة الكلام:

ـ كَحْيان يا بيكو، كَحْيان. عامل سويتش، «سوشو أفندى». كل شُغله فى الحياة: آلو.. آلو، آلو.. آلو..

وقبل أن يبدأ بكرى موّال السخرية، ألقت رأسها على كتفه وتوسّلت إليه:

ـ أرجوك يا بيكو؛ لا تحاول أن تجرحنى بأى كلمه فأنا حزينة ومحبطة. صحيح أننى كنت أتمنى أن يكون أحسن من ذلك وهو خذلنى، لكننى أحبه بجد، الله يخرب بيت الفقر.

فى ذلك اليوم؛ لم يكن بكرى قادرا على السخرية من نيللى. تلقّى دموعها برقّة، ربما لأنه كان محتاجا إلى حنانها وهو يتأهّب لزيارة الطبيب الدورية.

طمأن الطبيب بكرى على نتائج التحاليل وحال القلب:

ـ كل شئ فى جسمك يعمل بشكل طبيعى، ولا توجد أى أعراض مقلقة. حالة الإجهاد والتشتّت التى تشكو منها طبيعية مع تقدم العمر. يمكنك فقط أن تستعين ببعض المقويات؛ فيتامين بى وكالسيوم ومغنسيوم. أنصحك أيضا بالمشى وعدم الإجهاد، مع تنظيم مواعيد النوم والأكل. أعرف أن الفنانين يحبّون الفوضى، لكن السنّ له أحْكام، وحيوية الجسد تضعف على مر الأيام.

مرَّ بكرى فى طريق عودته بمطعم «الريشة»، واستقبله خيرى صاحب المحلّ بترحاب فرِح:

ـ أهلا بفناننا الكبير.

زمان، كان المحلّ منتدى للفنانين والكتّاب الصعاليك، يأكلون ويسكرون ويصخبون، وينسلّ بعضهم دون أن يدفع الحساب. كان الجرسونات يتعاملون مع الأمر بسماحة، ويكتفون بتسجيل الديون، وخيرى يحتفظ بكرَّاس الديون فى درج مكتبه على أمل استردادها يوما؛ مع صدور كتاب لهذا أو تنظيم معرض لذاك. كان خيرى وجرسوناته يبدون سعداء بالجو، خاصة أن نجوم الفن والأدب فى ذلك الوقت كانوا يحرصون على الظهور بين المثقفين الشبان، ليتعرَّفوا على أفكارهم، أو ليقتبسوا منها أحيانا.

الآن انتهى عهد المثقفين الصعاليك، وأصبح المحل مطعما سياحيا فخما للصفوة. تحميه مداخل زجاجية مُحْكمة، ولا يقدر على أسعاره إلا أصحاب الدخول العالية من كتّاب السيناريو ومصممى الإعلانات،

وبعض الأكاديميين، ورجال الإعلام والثقافة المتنفذين.

يحن بكرى إلى المحلّ دائما لأنه يذكّره بأيام الصعلكة، لكنه لا يأتى إليه إلا نادرا منذ عاد من أوروبا. هو قادر على الدفع، لكن المكان يخذله دائما، ولا يصادف فيه تلك الوجوه التى أَلِفَها وصاحَبها زمان.

يحرص دائما على أن يذكّر خيرى:

ـ ما زلت مدينا لك بثلاثة جنيهات، لكننى لن أدفعها حتى يظل اسمى فى دفتر الديون. لابد أن تظل محتفظا بالدفتر يا خيرى، فهذا المحلّ جزء من تاريخ البلد.

هو يعرف أن خيرى يحتفظ بالدفتر فعلا كوثيقة تذكارية، يضعه الآن على رفّ مخصوص على الحائط، وحوله صور لأعلام ونجوم كانت لهم جلسات أسبوعية فى المحلّ. بين الصور لقطات فوتوغرافية لخيرى فى شبابه، وهو يقف قرب طاولات يجلس عليها مشاهير وحولهم تلاميذهم المتصعلكون.

يجاوبه خيرى دائما بأن الدفتر دخل الأرشيف فعلا، وأصبح غير قابل للشطب أو التعديل. لكنه قال له فى ذلك اليوم:

ـ تستطيع أن تسدد دَيْنك الآن بطريقة أخرى؛ تهدينى لوحة من أعمالك أعلّقها خلف مكتبى.

ـ أنا لا أرسم الآن إلا نادرا يا خيرى، علب الألوان أندلقت فى داخلى والدنيا تلخْبَطت؛ أصبحتُ لا أعرف الأخضر من الأصفر. آخر لوحة أعمل فيها من عامين تقريبا، ولست واثقا أننى سأكملها.

طلبَ طعاما وزجاجة نبيذ من الجرسون، وأصرّ على أن يحيّى خيرى بكأس، وعرّفه أيضا بنيللى:

ـ سكرتيرتى. وهى أيضا فنانة صاعدة، وستراها عن قريب فى السينما والمسرح.

انبهرت نيللى بجوِّ الكلام، وفرحت بطريقة تقديم بكرى لها. تبسّطت فى الحديث:

ـ سأصبح من زبائنك عندما أشتهر وتجرى الفلوس فى يدى، وأحضر لك صورتى لتعلّقها فى المحل. فى صحتك يا خيرى بيه.

وقرعت كأسها بكأس بكرى:

ـ أنت حبيب قلبى وأستاذى؛ سكّر.

◆ ◆ ◆

كان حديث الذكريات شجيا، وكئيبا أحيانا: *«فلان.. عِلّان.. مات.. سافر.. اختفى..»*.

يدور خيرى بين الطاولات، مغالبا ألم ساقيه. يبحث فى الوجوه المتجددة عن ملامح قديمة. أحيانا؛ يكتفى بابتسامة مجاملة وهزّة رأس، وكأنه يعرض نفسه على الزبائن باعتباره جزءا من تراث المكان العريق.

لفّ وعاد إلى طاولة بكرى:

ـ لم يتبق من زبائنى القدامى إلا قلائل يعدّون على أصابع اليد، وهناك من يأتون بالصدفة كل عام أو عامين، مثلك تماما.

ـ ومن يقدر على أسعارك الآن يا خيرى؟!

ـ الانفتاح غيّر البلد؛ الأسعار والناس، حتى أهل الكتابة والفن الآن غير زمان.

ـ كل واحد انفتح بطريقته وبخديعة ما رتّبها مع نفسه. وأصبح تذكارا لشخص آخر كان يشبهه. حتى أنت يا خيرى أصبحت مجرد تذكار.

ـ وماذا تفعل الآن يا بكرى بيه؟

ـ قضيت عمرى أبحث عن معنى ما فى الألوان، لكننى عجزت دائما عن اصطياد الفراشة. الآن لا أفعل شيئا.

كان الكلام مستعادا، فيما عدا إلحاح خيرى على أخذ لوحة من أعمال بكرى. سجّل رقم موبايله، وقال له:

ـ سأنتظر لوحتك الجديدة، أو حتى لوحة قديمة.

ـ لوحاتى لا تناسب وضعك الجديد، زمان كان المحلّ مفتوحا على الشارع وحركة الناس، ويصخب بأحاديث السياسة والفن وأخبار المظاهرات والمعتقلات. الآن زحف على الرصيف بجدران وأبواب زجاجية، صار كأنه برج للمراقبة. المكان لم يعد مكانى، والزمان ليس زمان أمثالى؛ هذا زمن نيللى، وكل ما أستطيع أن أعدك به أن أُحضر لك صورتها بنفسى عندما تشتهر، باى باى يا خيرى.

◆ ◆ ◆

باى.. باى..

ـ سكرتيرتى. وهى أيضا فنانة صاعدة، وستراها عن قريب فى السينما والمسرح.

انبهرت نيللى بجوِّ الكلام، وفرحت بطريقة تقديم بكرى لها. تبسّطت فى الحديث:

ـ سأصبح من زبائنك عندما أشتهر وتجرى الفلوس فى يدى، وأحضر لك صورتى لتعلّقها فى المحل. فى صحتك يا خيرى بيه.

وقرعت كأسها بكأس بكرى:

ـ أنت حبيب قلبى وأستاذى؛ سكّر.

◆ ◆ ◆

كان حديث الذكريات شجيا، وكئيبا أحيانا: «*فلان.. عِلّان.. مات.. سافر.. اختفى..*».

يدور خيرى بين الطاولات، مغالبا ألم ساقيه. يبحث فى الوجوه المتجددة عن ملامح قديمة. أحيانا؛ يكتفى بابتسامة مجاملة وهزّة رأس، وكأنه يعرض نفسه على الزبائن باعتباره جزءا من تراث المكان العريق.

لفّ وعاد إلى طاولة بكرى:

ـ لم يتبق من زبائنى القدامى إلا قلائل يعدّون على أصابع اليد، وهناك من يأتون بالصدفة كل عام أو عامين، مثلك تماما.

ـ ومن يقدر على أسعارك الآن يا خيرى؟!

ـ الانفتاح غيّر البلد؛ الأسعار والناس، حتى أهل الكتابة والفن الآن غير زمان.

ـ كل واحد انفتح بطريقته وبخديعة ما رتّبها مع نفسه. وأصبح تذكارا لشخص آخر كان يشبهه. حتى أنت يا خيرى أصبحت مجرد تذكار.

ـ وماذا تفعل الآن يا بكرى بيه؟

ـ قضيت عمرى أبحث عن معنى ما فى الألوان، لكننى عجزت دائما عن اصطياد الفراشة. الآن لا أفعل شيئا.

كان الكلام مستعادا، فيما عدا إلحاح خيرى على أخذ لوحة من أعمال بكرى. سجّل رقم موبايله، وقال له:

ـ سأنتظر لوحتك الجديدة، أو حتى لوحة قديمة.

ـ لوحاتى لا تناسب وضعك الجديد، زمان كان المحلّ مفتوحا على الشارع وحركة الناس، ويصخب بأحاديث السياسة والفن وأخبار المظاهرات والمعتقلات. الآن زحف على الرصيف بجدران وأبواب زجاجية، صار كأنه برج للمراقبة. المكان لم يعد مكانى، والزمان ليس زمان أمثالى؛ هذا زمن نيللى، وكل ما أستطيع أن أعدك به أن أُحضر لك صورتها بنفسى عندما تشتهر، باى باى يا خيرى.

◆ ◆ ◆

باى.. باى..

يتنفس بكرى رائحة الألوان وهو يفكر فى تغيّرات الحياة. يشعر أن الألوان فقدت دلالاتها القديمة، ويتوه وهو يحاول أن يستعيد الإحساس. يتوه أيضا إذا حاول تركيب ألوان تناسب اللحظة، وتظلُّ الفرشاة حائرة فى يده.

أحيانا؛ يفكّر فى تلك الألوان التى لا يدركها البصر، الألوان التى يعرف أن العين البشرية لم تُؤهّل أساسا لاستقبالها، لكنه كان يرتد بخيالاته سريعا، فهو لا يحب أن يغوص فى تلك المناطق المحجوبة، لا يهتم بها أصلا، تهمُّه ألوان الدنيا وما تطوله الحواس. همُّه أن يتمسك بحبل الحياة جيدا ولا يدعه يفلت من يده.

◆ ◆ ◆

طرح همومه على رفاق السمر. بدأ بالحديث عن لوحته المتعثّرة وارتباك إحساسه بالألوان، ثم انتقل إلى المتغيّرات التى تجرى فى العالم واضطراب المفاهيم وانقلاب معانيها، وسألهم:

ـ من يستطيع أن يخبرنى ماذا تعنى كلمات مثل «الحرية» و«العدالة» و«الديمقراطية» هذه الأيام؟

وجّه اللواء فادى أذنه اليسرى للسؤال وأصغى باهتمام، ثم ردَّ بحماس:

ـ لا يا بكرى؛ هناك حقائق وقيم ثابتة، والدنيا تلف وتدور وترجع لأولها. الأرض لها محور ثابت، ولابد أن تعود إلى نفس النقطة، وإذا خرجت عن مسارها تفسد الحياة؛ تنتهى. كذلك الألوان مهما تلخبطت

داخلك؛ لابد أن تلف وترجع لمعانيها، كل لون وحده وله معناه؛ الأحمر أحمر، الأسود أسود، الأخضر أخضر، وتظلّ المعانى باقية مهما فسدت الدنيا. انتبه يا بكرى؛ كله يلف ويرجع.

ورسم بإصبعه في الهواء دائرة حول الجملة:

ـ يلف.. ويرجع.

عارضه بكرى بكلمة واحدة وإشارة حاسمة؛ شق الهواء بسيف يده، وصفر صفّارة القطار السريع:

ـ دوغرى.

وفسّر الكلام:

ـ أنا مع نظرية «الدوغرى؛ لا شئ يرجع لأوّله. ما فات فات، وما مضى لا يرجع. أنت تُربك نفسك بنظرية «اللف والدوران».

صفَّر بحسم. دوَّت صفارته طويلا وهو يتأملها، حتى ارتعشت أنفاسه وتقطّعت. لهث:

ـ دوغرى؛ لكننى لا أعرف إلى أين.

ورفض أى جدال:

ـ الدنيا تغيَّرت.

تعوّد أبو شنب ألا يتدخل فى أى حديث بين الباشوات، وأن يطأطئ رأسه لكل كلام، لكنه فى تلك الليلة خرج عن عادته وعلّق:

ـ والعين التى ترى تغَّيرت أيضا يا باشا.

هزّ بكرى رأسه باستحسان هازئ، وهلَّل للمعجزة:

ـ الحمد لله؛ البغل نطق.

◆ ◆ ◆

نطق أبو شنب بعد ذلك بما لا يتوقعه بكرى ولا رفاقه.

كان فى فمه كلام من أوّل السهرة. ظلّ يتململ فى حضرة الباشوات وهو يتحسَّس المداخل، قبل أن يطرحه على استحياء:

ــ أنتم السادة؛ أصحاب الرتب وأهل المَدد، وأنا أطلب منكم المشورة والعون إن أذنتم لى.

سمحوا له، فطلب منهم أن يساعدوه فى عملِ مشروعٍ يوظِّف فيه مدّخراته.

هم اعتبروا كلامه فكاهة، وطرحوا عليه أن يشترى الهرم أو المترو أو قناة السويس. وهو سمع بأدب، ثم حدّد لهم قصده:

ـ كلامكم على رأسى، لكن هذه مشروعات كبيرة ولها ناس غيرى يقدِرون عليها، أما أنا فأريد مشروعا على قدر حالى، وكل ما أملك نصف مليون جنيه فقط.

ـ نصف مليون جنيه!!

ـ الحمد لله، أنا راض بما قُسم لى؛ وحالى أحسن من غيرى، فهناك من لا يجد جنيها واحدا.

لاحظ نبرة السخرية فى اقتراحاتهم، فمسح شاربه الشوكى عدة مرّات، وحدَّد طلبه:

ـ افهمونى يا باشوات؛ أنا لا أريد أن اشتغل بما لا أفهم، أريد قطعة أرض صغيرة أبنى عليها مشروعى الخاص، أخدم الناس وأكسب.

ـ وماذا تريد ان تبنى؛ سلسلة فنادق؟

ـ لا تسخر منى يا باشا، أريد قطعة ارض صغيرة فى ميدان عام، صغيرة جدا جدا، يكفينى ثلاثون مترا. أريد أن أبني دورة مياه تفكُّ زنقة

الناس، والدخول بربع جنيه. أملى فى الباشا رضوان كبير، ولو الأرض في ميدان التحرير يكون المكسب أكبر؛ الناس هناك مزنوقة بالآلاف.

ولم ينس أن يوضح حكمة المشروع:

ـ مكسبه كبير، ثم أن فيه أيضا خدمة للناس، وتواضع لخلق الله.

سيطرت فكاهة «بيزنس البيب بى» على الجلسة، حتى انقلب الضحك إلى مغص في أحشاء نيللى.

ابتدع بكرى التعبير وهو يشير بإصبعه إلى الكلام الخارج من حلق أبو شنب:

ـ أسمعت ما قال؛ آخر لقطة في عالم الأعمال؛ «بيزنس البيب بى».

قهقه رضوان، ورسم خطين بإصبعه في الهواء تحت التعبير المبتكر:

ـ «بيزنس البيب بى»، عنوان مقال.

واعتذر مقدما عن تنفيذ الفكرة:

ـ لولا أنها تغضب رجال الحزب لكتبتها فى مقالى.

وواصل السخرية وهو يخبط كتف أبو شنب:

ـ كنت أظنك تتوه في العدد بين واحد وثلاثة.

لاحظ بكرى نبرة الغيرة في كلامه، فزاد ناره:

ـ انتبه؛ وصل إلى نصف المليون، ومن يدرى بما بعد ذلك.

وجدت نيللى نفسها متورطة في الموضوع، والدور دورها، تشبَّثت بجلباب أبو شنب، وساومته وهى ترتجل دور العاشقة الولهانة:

ـ لماذا تتعب نفسك فى مشروع كهذا؟.. كل ذلك يا روحى لكى تسمع خرير المجارى؟!.. هات نصف المليون وتعال جنبى، وأنا سأُسمعك أحلى خرير فى الدنيا؛ خرير الخرير.

ضَرَبَت بُمبَة، واعتذرت وهى تتحسس موضع المغص:

ـ لولا المغص لعزفت لك، حتى يدركك الصباح، فأكف عن الكلام المباح، كو كو كووه.. مولاى أبو شنب.

وكتمت الضحك:

ـ آه يا بطني.

حاول نصيف أن يفلسف المسألة بوقار:

ـ لاحظوا أن المشاريع تطلع من الدماغ، وهذا آخر حدوده فى التفكير «خرير المجارى».

صحح فادى الجملة بطريقته، وهو يلمز رضوان بالكلام:

ـ ليس أبو شنب وحده؛ هذه ثقافة العصر كله، أليس كذلك يا سيادة النائب؟!

وقال لأبو شنب:

ـ غيّر مياه الجوزة، أنفاسنا مرّرت.

ـ كلامك أوامر ياسيادة اللواء.

ظلَّ مشروع «البيب بى» مطروحا للفكاهة فى جلسات السمر؛ يتذكرونه مع كل طَرْطَرة. وكانت نيللى تستقبل أبو شنب أحيانا بمشاهد سينمائية تتنهَّد فيها وتركع:

ـ فتى أحلامي أبو شنب؛ اخطفنى على الموتوسيكل، واهرب بى لآخر الدنيا.

تبالغ فى الآداء حتى يداهمها الوجع:

ـ آه يا بطنى.

◆ ◆ ◆

فى الفترة الأخيرة زادت آلامها. لم ينتبه أحد، وهى لم تهتم بالأمر كثيرا.

أزعجتها أيضا قطرات الدم التى تفلت فى ملابسها الداخلية خارج المواعيد الدورية، لكنها قدَّرت أنها تجرح نفسها دون أن تنتبه. استمرت تعيش نشوة الخلسة لكن بحذر أكبر.

◆ ◆ ◆

يطير أبو شنب بالموتوسيكل من مكان إلى مكان ليوزِّع بهجة الكيف على زبائنه: «شبيك لبيك». يختبر جودة الصنف بنفسه، ولا يغالى فى تقدير مكسبه. يعتبر شُغله خدمة للعباد. ورغم نمو مدخراته؛ لم يتخلّ عن الجردل والممسحة وتنظيف دورة المياه. يؤمن بأنه مسخَّر للخدمة منذ مولده؛ خادم أبدى. يضع علاقته شبه المنتظمة ببكرى ورفاقه فى هذا الإطار، يشعر بالسعادة وهو جالس على الأرض بين أقدام الباشوات، ينفخ الجمر ويخدم برضى.

لم تخل حياته من ابتسامات رغم رتابة الأيام والأشغال، وكان تفكيره فى المشروع مصدرا مهما للبهجة والأحلام. صحيح أن بكرى ورفاقه يتداولون الموضوع كفكاهة، لكن ذلك يعنى عنده أنهم يتذكّرون طلبه، وهو من جانبه واثق بقدرتهم على مساعدته فى تخصيص الأرض واستخراج الترخيص.

يحلم، وتزداد ابتسامته اتساعا وهو يتذكر تمثيليات نيللى وركوعها فى استقباله:

ـ فتى أحلامى أبو شنب.

يقهقه أحيانا ويتراقص شاربه الشوكى وهو ينطلق إلى مجلس بكرى،

وتتوحد قهقهاته بصوت الموتوسيكل وزعابيب أمشير الصاخبة.

(كان «أمشير» قد نشط مع نهايات الشتاء، ينفض ما بقى من أوراق ذابلة عن الأغصان، ويذرُّ نُطَف الأشجار فى الجوّ فيحرِّك المشاعر والرغبات. وكان ملائكة الربيع يطلّون من بين فرجات الغمام، يستطلعون المشهد، ويتخيّلون خرائط الألوان للموسم الوشيك، تلك الخرائط المستعادة من عام إلى عام.)

تحتضن نيللى نفسها فى برد أمشير، وتولِّى وجهها صوب الشباك العارى من الستائر. تنام وهى ترقب تلك الابتسامات الملائكية التى تتشكّل فى فرجات السحاب، وتضيق وتتسع مع تقلّبات الريح. ترى فى أحلامها خالتها ماجدة واقفة بين السماء والأرض، وحولها لغط من أصوات الدجاج. تصحو على قهقهة الزعابيب، وخبطاتها على زجاج الشبّاك.

يحيرّها ظهور ماجدة فى أحلامها، وتخمن دائما أن خالتها تحاول أن تفعل شيئا من أجلها، لكنها تعجز عن تفسير الإشارات بالضبط. تنتظر حتى تجد ما يمكن أن يوافقها من وقائع الأيام، وتضيف من خيالها أحيانا لضبط التوافقات.

فرحت حين أخبرتها جمهور أن فرصتها قربت فى السينما، وأنها رتّبت لها دورا فيه رقص وشخلعة. نطّت بالموبايل وقالت لها:

ـ «ماما ماجدة» بشّرتنى بذلك، كنت أراها فى أحلامى وهى تكلّم الملائكة من أجلى، لكن الغريب أننى كنت أصحو على قهقهة مثل أصوات الشياطين.

قفزت جمهور على حديث الملائكة والشياطين، ونصحتها:

ـ المهم الآن أن تجهّزى نفسك للدور.

ـ بنتك جاهزة دائما بالحلاوة والشياكة، أمّا «الماكياج» فمسئوليتك أنت يا خالتى.

تعتمد نيللى فى ماكياجها وعطرها على الهدايا الموسمية التى يحصل عليها اللواء فادى من شركته، لكنها تفرح أكثر بالماركات الأجنبية التى

تجود جمهور ببقاياها من حين لآخر. المرأة عندها الكثير؛ بعضها هدايا، وأكثرها من فضلات فنانات نصف مشهورات.

فتحت جمهور دُرْج البقايا وتركتها تختار ما تريد، ثم أعطتها زجاجة عطر شبه فارغة، ونبهتها إلى أنه ماركة «كريستيان ديور» وتكفيها بخّة منه وقت التصوير.

قبّلتها نيللى بفرح، واحتضنتها طويلا بامتنان، وقالت لها:

ـ الربيع قرب، وطعم التوت فى حلقى. أريد أن أزور بلدنا بعد أن أنتهى من تصوير الفيلم؛ أُسعدُ قلب ماما فاتن بأخبارى، وأنام فى حضن ماما ماجدة، وأقول لها: «ادعى لى». هى طاهرة، وتُكلّم الملائكة بجد كما أكلّمك.

ـ أى فيلم ياروح أمك؟!.. كل الحكاية خمس دقائق وخمسون جنيها، لكنها فرصة قد تلفت نظر المخرج لك.

دخلت نيللى عالم «الكومبارس» برقصة فى زفّة شعبية، كانت فى آخر الصفوف، لكن وجهها ظهر فى لقطة وسط الزحام، وظهرت مؤخرتها فى خمس لقطات. بدا التايور الأزرق أرستقراطيا فى المشهد البلدى، وبدا أيضا أكثر إثارة من مؤخرات البنطلونات الجينز.

اشرأبت خلف المخرج بعد التصوير لترى المشهد على شاشة الكاميرا، ثم عادت إلى البيت منفوخة، وتجرَّأت على بكرى:

ـ من الآن لابد أن تحترمنى، مؤخرتى أصبحت أشهر منك؛ ظهرَتْ فى السينما.

كلامها مع بكرى دلع وهزار، لكنها كانت تحس أن المشهد نقلة مهمة فى مسار حياتها. قالت لقيس بصدق:

ـ أحيانا؛ أخشى أن يتغير قلبى معك بعد أن أصبح مشهورة.

بدا أيضا أن الدنيا تبتسم لقيس.

استدعاه مدير التحرير وعامله بلطف. سأله عن أحواله، وتركه يتحدّث طويلا عن رغبته فى تحسين وضعه بالجريدة والانتقال إلى عمل صحفى، ثم قال له:

ـ أظن أن أمامك الآن فرصة ذهبية للعمل بالصحافة، لكنها تحتاج إلى تعب وجهد وتضحية، وتحتاج أيضا إلى صبر طويل، فلن تتم الأمور بين يوم وليلة.

طلب منه أن يغلق الباب، ثم حدّثه باقتضاب عن الأحداث الخطيرة التى تنتظر العراق والمنطقة كلّها، وشرح له ضرورة أن تستعدّ الجريدة لهذه التطورات بأرشيف ضخم ومنظّم يوفرّ المعلومات للكتّاب والمحررين. اشتكى له أيضا من أن العاملين فى الأرشيف كسالى وغير منظّمين، رغم أنهم معينون على الكادر الصحفى، ويحملون كارنيهات النقابة. واقترح عليه:

ـ يمكنك أن تتطوع بهذه المهمة إلى جانب عملك، وسيكون ذلك بداية طريقك إلى الصحافة.

ونبّهه:

ـ سيظل وضعك الوظيفى فى فترة التدريب كما هو؛ مجرّد عامل تليفونات، بنفس الشروط القديمة، ونفس العقد المؤقت. وعندما تثبت جدارتك يمكننا أن نفكر فى نقلك، وسيكون بيننا كلام آخر.

ـ ألا يمكن نقلى مباشرة، لأوجه كل جهدى للعمل الجديد؟

ـ انتقالك بشكل مفاجئ إلى عمل صحفى سيثير إخواننا الصحافيين، فهم يعرفون أنك عامل تليفونات، وسيعتبرون ذلك إساءة لهم. دعهم يعتادون أولا على ظهورك فى الأرشيف، وعندما تثبت أن وجودك فى هذا المكان مفيد للجريدة ولهم؛ سيصبح نقلك بصفة نهائية أمرا مقبولا

وحدد له محاور المعلومات المطلوبة:

ـ أريد معلومات دقيقة بالأرقام والخرائط والصور، ومعها المقالات والتحليلات المهمة، وعليك أن تسلّم هذه المادة لى شخصيا؛ يدا بيد.

◆ ◆ ◆

غطّى صخبُ الفضائيات على زعابيب أمشير، كانت المحطات تتسابق لإعداد تيترات الحدث الوشيك. تتلاحق على الشاشة الصغيرة مقتطفات بليغة من تصريحات مختلف الأطراف؛ بوش وصدّام وحكماء المنطقة، ثم يظهر المحللون الفضائيون ليشتبكوا فى نقاشات حامية.

بين فواصل البرامج لقطات للأساطيل وهى تعبر بهدوء من بحر إلى بحر، وجنود المارينز وهم يتدرّبون على مطاردة العراقيين من بيت إلى بيت؛ يكسرون الأبواب بركلاتهم القوية، ويطلقون الرصاص فى كل الاتجاهات.

كانت الأخبار تزيد قلق قيس على أبيه، وهواجسه تطارده بإلحاح وهو يجمع المادة الأرشيفية. أحيانا يكاد يبكى وهو يحدّث نيللى عن قلقه، وهى تسمع بصبر وتحاول أن تهدّئ خواطره، وبعد أن تنتهى المكالمة تتصل بجمهور وتشكو:

ـ الله يخرب بيت أبيه الفقرى؛ تاه فى العراق، والولد مشغول به طول الوقت. أفكاره مشتّتة؛ لا يقدر أن يركّز فى حبىَ، ولا فى مستقبله.

جاء رضوان قبل نهاية السهرة متأبطا الطبعات المسائية لصحف اليوم التالى. حدَّثهم عن حاملات الطائرات والحشود وتأهّب القواعد الجوية، وأكد لهم:

ـ الضربة وشيكة، ولن تستغرق أكثر من أيام.

راهن اللواء فادى على أن أمريكا لن تخاطر بالدخول فى مغامرة تعرف أن نتائجها كارثية، وقال:

ـ سيتحوّل القتال إلى عمليات مقاومة وحرب عصابات، وتغرق جيوش الإمبراطورية فى الوحل العراقى بعد الأفغانى.

رسم الخرائط بإصبعه فى الهواء، وشرَح بإسهاب، لكنهم لم يتلقوا كلامه باحترام يليق بوجهة نظر خبير عسكرى، بل بدا رضوان كأنه يسخر من المحارب القديم:

ـ سنرى ياسيادة اللواء.

لم يحصل فادى على الرتبة الرفيعة خلال خدمته العسكرية، لكن أصحابه المدنيين أنعموا بها عليه. توقفت ترقياته فى الجيش عند رتبة «عقيد»، وقاد بها إحدى كتائب المشاة فى حرب التحرير. حارب بضراوة فى «ثغرة الدفرسوار»، وفقد أغلب رجاله ومعداته، وفقد أذنه اليمنى وسمْعَها أيضا. خرج بعد الحرب مكللا بنياشين وأوسمة ومعاش عميد متقاعد، لكنه كان حزينا لعاهته، وغير راض عن مسارات الحرب والسلام. حتى الآن يناقش المسألة بحرارة كأنها مطروحة للتصويت.

لا يزال يقاوم بخياله فى ثغرة الدفرسوار، ويتصوَّر مسارات أخرى

غير تلك التى جرت. أحيانا تدمع عيناه وهو يتوقع الرصاصة الأخيرة فى خنادق خياله.

قال لرفاقه فى ختام السهرة:

ـ لو ضربوا العراق ستنقلب المنطقة، وتسقط أنظمة موالية لأمريكا، الناس فى الشوارع نار يغطِّيها الرماد.

◆ ◆ ◆

غطَّى الرماد الجمرة الباقية فى الموقد، فترددت حمرتها بين التوهج والانطفاء. راقبها بكرى وهو يفكر فى أن وجودها وحيدة لابد أن يسلمها إلى الرماد.

فى تلك الليلة أضاف بكرى للوحته الناقصة بعض اللمسات؛ قطرات دم تهمُّ بالإحمرار، لكنها ما تلبث أن تقطر فى قاع اللوحة خائرة خامدة.

◆ ◆ ◆

بعد أيام قليلة؛ شاهد رفاق السمر لقطات «الصدمة والرعب» المتلاحقة فى الفضائيات؛ القصف العاصف، ومعارك الجنوب، والزحف إلى بغداد. هبّت روائح البارود على خيال فادى فقال:

ـ الثغرة كانت هنا على الأرض، فضّوها بالمفاوضات، لكنها انفتحت فى السياسة، وبعد السياسة الاقتصاد، ثم العقول. الآن رجعت للأرض، ووصلت حتى بغداد، ولا نعرف لأين ستمتد غدا؛ المؤامرة مفتوحة.

انتقده رضوان بشدة، واتهمه بأنه يعيش حالة حصار نفسية، ويفسر الأمور حسب مؤامرة وهمية لا توجد إلا فى رأسه، وسأله باستنكار:

ـ لماذا يتآمرون علينا؟!.. فلوسنا فى بنوكهم، وأرضنا تحت أرجلهم،

وأكْلُنا من معوناتهم. اسمع منى يا جنرال وحاول أن تفهم، فأنت عسكرى ولا علم لك بأمور السياسة.

حاول أن يشرح المسألة باعتبارها تحريرا للعراق وللمنطقة كلها من الدكتاتورية، لكن فادى وقف له:

ـ وما علاقتك أنت بالديمقراطية؟!.. أنت وأمثالك دعائم للدكتاتورية فى كل زمان ومكان؛ تنتقدها فى جلساتنا، وتدافع عنها على الملأ. ألا تستمع لما تقوله بلسانك فى الفضائيات؟!

ـ عيبك يا جنرال أنك تسمع بأذن واحدة، ويفوتك نصف الكلام.

اشتعل النقاش، وتأهَّب نصيف للمشاركة بطريقته الخاصة. هو يميل دائما إلى مشاغبة رضوان، ويتعمد إرباكه بحنكة قاض سابق. يفسح له الطريق حتى يتوه فى الكلام ويبدأ اللخبطة، وعندئذ ينقض عليه بتعليق حاسم يجعل منه أضحوكة الجلسة. يهرب بعد ذلك من أى نقاش، ويحوّل المسألة إلى هزار:

ـ القَفْشة حكمت.

فى انسحابه السريع حصافة رجل يريد ألا يتورط فى اشتباك مع رضوان. عنده أيضا ما يثير السخرية، ورضوان بالذات يعرف عنه كل شئ، ولسانه لا يرحم.

عمل نصيف بعد اعتزاله القضاء مستشار ظلٍّ لرجل أعمال. كان محتاجا لدخل إضافى يحافظ به على مظهره بعد المعاش، ولم تكن لديه امكانيات لفتح مكتب للمحاماة فى منطقة تليق بمكانته، ولا لديه استعداد للعمل مساعدا فى مكتب محام أقل منه سنا ومقاما، قَبِل وظيفة الظل ذات المرتب السخىّ المستور.

لم يرهقه الرجل بأعمال روتينية، كان لديه فريق من المحامين يتابعون قضاياه وعقوده ومشاكل قروضه. اكتفى منه باستشارات قانونية دقيقة فى أمور تخص نزاعات الملكية على أراضى الدولة، والثغرات الموجودة فى بعض القوانين والإجراءات القضائية.

استفاد أيضا بعلاقاته.

لم يكن له مكتب فى شركات الرجل، ولم يوقِّع ورقة طوال عمله. ظلت علاقتهما أشبه بصداقة وجلسات دردشة، وغالبا فى بيته.

هرب الرجل إلى الخارج بثروته وديونه الضخمة للبنوك، لكن نصيف لم يتضرر من هروبه؛ لا يزال مرتبه يصله بانتظام، والعلاقة مستمرّة بالتليفون.

◆ ◆ ◆

فى تلك الليلة تدخّل نصيف بطريقة مراوغة لإسكات فادى وتوريط رضوان، ضرب أكثر من عصفور بكلامه وهو يقول للجنرال:

ـ صحيح؛ أنت لا دخل لك بالسياسة، ولا صلة لك بالعسكرية حاليا. أنت الآن مجرد مدير أمن فى شركة «ماكياج»، جنرال على أربعة أو خمسة موظفين وسكرتيرة. اترك لنا فرصة لنستفيد من تحليلات سيادة النائب، فهو أكثرنا اطلاعا وفهما للأبعاد السياسية للموضوع.

فهم فادى الغَمْزة فبلع الكلام وسكت.

تكلم رضوان طويلا، واستدرجه نصيف بأسئلة مقتضبه تكشف تناقضاته وتزيد ارتباكه، ثم قال له فى النهاية:

ـ فهمْنا من كلامك أنك تعتبر الديمقراطية هى المسألة الأهم فى المنطقة. الآن البس «دماغك الحزبى»؛ واشرح لنا رؤيتك لمسألة

الديمقراطية فى بلدنا؛ هنا فى مصر

وقع رضوان فى الشرك، وانهالت القهقهات الساخرة:

ـ البسْ «الدماغ الحزبى»..

ـ الكرافتة طبعا..

ـ هأ.. هأ.. هأ..

ـ بدلة الرقص.. هشّك بشّك..

ـ هأ.. هأ.. هأ..

◆ ◆ ◆

رجعت نيللى من سهرة الملهى وقت الهأهأة. كانت مبسوطة بعد أن شربت رشفات ويسكى وبيرة من بقايا الزبائن. هأهأت معهم وسألت أبو شنب:

ـ على أى شئ يضحكون يا فارس أحلامى؟

ـ كلام الباشوات كلّه حكَم.

لم تفهم شيئا من كلامه، فاتكأت بيديها على كتفيه وهى واقفة، وأدارت دفّة الضحك فى الاتجاه الذى تعرفه:

لا أعترف بباشا غيرك، فمتى تخطفنى بالموتوسيكل ونهرب بالفلوس؟

أدار الجوزة نحوها وحيّاها:

ـ مساء العنب.

قبلت تحية الجوزة.

كانت أول مرّة.

لم يستطع بكرى قبل ذلك أن يستدرج نيللى إلى المخدرات. حاول

معها كثيرا؛ لكى يضعها فى مزاج تصبح معه أكثر فهما وتقبّلا لحالاته، لكنها كانت تحذر دائما، وتدرك أنها يجب ألا تفقد انتباهها أبدا حتى لا تضيع. تشخط وتردّه:

ـ ابعد عنى يا بيكو، أنا مسطولة وحدى؛ الهم ساطلنى.

فى تلك الليلة؛ قبلت دعوة أبو شنب؛ شفطت وكحّت وهأهأت:

ـ مساء العنب يا فارس أحلامى.

حيّاها الباشوات بحرارة:

ـ مساء العنب يا نيللى باشا، حلاوتك.

◆ ◆ ◆

تكرّرت اللقطات وتشابهت طوال الأيام التالية، لكن مشهد إسقاط تمثال صدّام كان نقلة مهمة فى مسار الفُرجة.

ثبّت جندى العلم الأمريكى على قاعدة التمثال المخلوع، لكن فتى عراقيا تسلّق القاعدة بهدوء، أنزل العلمَ الأمريكى ثم أعاد مكانه راية بلاده. ظل العلم العراقى يرفرف وسط المشهد الفاضح فى ساحة الفردوس، والفتى يبتسم بحسم.

تنفّس فادى دخانه بعزم حتى اشتعلت الجمرة، وقال وهو ينفث حلقاته فى وجه رضوان:

ـ الآن ستبدأ الحرب الحقيقية، حرب المدن والعصابات.

ـ بل ستبدأ مسيرة الديمقراطية، ليس فى العراق وحده، بل فى المنطقة كلِّها.

ـ سنرى.

ـ ولماذا ننتظر حتى نرى يا «جنرال الماكياج»؟.. نحن نرى الآن

بالفعل عراقيين يرحّبون بدخول قوات التحالف بغداد، ويرقصون طربا مع اسقاط التمثال.

ـ ولماذا تتجاهل ما فعله الفتى العراقى؟.. ولماذا تنسى تلك المرأة التى فقدت كل أسرتها، وسمعناها فى الفضائيات وهى تتوعد صارخة: *«إذا مات كل رجالنا فسيحاربهم نخيل العراق»* ؟

ـ لا تزال تعيش زمن الشعارات والهتافات. الآن سيهدمون العراق على رأسه بيتا بيتا، ويمسكونه فى النهاية كفأر. هل كان يظن أنه قادر على مواجهة أمريكا؟!

ـ وبعد ذلك؛ سيعيدون بناء العراق بيتاً بيتا، طوبة من ذهب وطوبة من فضة، ويرفعون رايات الديمقراطية والرخاء على كل دار، أليس كذلك؟ عليك أن تفهم يا سيادة النائب أن الديمقراطية لا تأتى من الخارج.

ـ سمع.. همّ، الجنرال يعظ.

يبدو رضوان منفعلا فى نقاشاته مع رفاق السمر، لكن انفعاله يظل تمثيليا. هو فى النهاية يختبر آراءه معهم قبل أن يجهر بها فى الفضائيات، يعدّل صياغات الكلام، ويقتبس، ويقيس ردود الأفعال. يهمه دائما أن يسكن مساحة آمنة وسط كل الاحتمالات والاتجاهات.

◆ ◆ ◆

لم تفلح تحيات أبو شنب المتكررة فى تخفيف حدَّة النقاش، فحاول بكرى أن يفعل ذلك مترنّما بشعر من مسرحية «قيس وليلى»:

ـ «ما الذى أضحك منى الظبيات العامرية..

ألأنّى أنا شيعى وليلى أموية؟

اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية».

أشار رضوان للكلام الخارج من فم بكرى، ونبَّه فادى:

ـ اسمع وافهم ما يقول؛ خلافات السنة والشيعة حطمت حتى علاقة قيس بليلى، وهذا بعد آخر فى الموضوع العراقى اليوم؛ الشيعة والسنّة.

فهمت نيللى الكلام على نحو يخصّها، وقدّرت أن بكرى يحاول العودة لحديثه التهكّمى عن علاقتها بقيس، فحايلته:

ـ لا تضايقنى الليلة يا بيكو، أنا تعبانة، والمغص يكاد يقتلنى.

وتوجّعت:

ـ آه يا بطنى.

تحسّس بطنها وسألها:

ـ أين تشعرين بالمغص بالظبط؟

ـ تحت.

ظل يزحف بيده إلى تحت حتى قارب منطقة الوجع، فنفرت من يده وشتمته:

ـ ارفع يدك يا معفِّن، أنا عيّانة.

ظهرت مؤخرة نيللى فى إعلانات التلفزيون عن الفيلم. فطارت بفرحتها من تليفون إلى تليفون، وقالت لقيس:

ـ فرصة لتعزمنى على السينما.

يمكننا أن نخمّن أن إحساس قيس بالفيلم كان مختلفا، ربما كان أقرب إلى الضجر. نيللى فسّرت فتوره بالغيرة، وقالت لبكرى:

ـ خشيت أن يقف فى الصالة ويزعق فى الجمهور: *«غمّضوا عيونكم»*. ولمّا خرجنا كان الأولاد يشيرون إلىّ ويقولون لبعضهم: *«هذه هى»*، وهو يشدّنى ويبعد.

هناك الكثير مما يُقلق قيس بالنسبة لنيللى، لكن قلقه على أبيه أكبر، غطّى على أسئلته المعلقة، وشوّش أحيانا على أحلامه بتثبيت وضعه فى أرشيف الصحيفة. كان يبدو أغلب الوقت مرهقا وفاقدا للبهجة، عدا تلك اللحظات التى يحتشد فيها لمقابلة مدير التحرير ليسلّمه تقاريره الأرشيفية. يبتسم ويطأطئ بتواضع فى انتظار كلمة شكر.

لاحظت نيللى فتوره؛ فعاتبته ونصحته:

ـ لا تنشغل بموضوع أبيك أكثر من طاقتك، فليس بوسعك أن تفعل شيئا لأجله. ركّز تفكيرك الآن فى شغلك، وأَحبّنى أيضا بجد. قل لى مرة: *«هاتى بوسة»*، أو خذنى فى قارب وانكش شعرى. شدّنى إليك، ولا تتركنى تائهة. ثم لا تنس أننى فنانة وأحبّ الدلع.

تحمّس لفكرة القارب، وعزمها يوم شم النسيم، لكنه لا لمس خدّها ولا نكش شعرها، وإنما أسند رأسه على كتفها وحدّثها عن همومه الجديدة.

أخبرها أن رفيقيه فى المسكن يتأهبان للرحيل، وعليه أن يتحمل كل الإيجار بعدهما. ديمترى يعدّ أوراقه للهجرة إلى كندا، وحسين ينتظر وظيفة محصّل لفواتير الكهرباء فى بلده بالصعيد. قبلوا توظيفه بعد أن قبل التنازل عن مؤهله الجامعى، والتعيين بشهادة الثانوية. الآن يستكمل الأوراق.

رأت نيللى أن رحيل الرفيقين فرصة لينفرد قيس بالمسكن ويستقرّ فيه، لكنه أحبطها حين أخبرها أن مسكنه ليس شقّة، وإنما غرفة بدون مرافق، وعقد إيجارها سنوى، ولا يجدد إلا بموافقة كلّ الورثة.

وزادها إيضاحا:

ـ عشّه فوق السطح، والحنفيّة ودورة المياه فى العراء.

ملّت حديث الهموم، فقالت له:

ـ ارفع رأسك عن كتفى؛ ثقيل.

على رصيف الكورنيش؛ عزَمَها على قرطاس ترمس، وسقاها من قلّة، وهى بخلت عليه حتى بالشكر:

ـ نشرب المياه بصدأ المواسير، وناس غيرنا تشرب عصير المياه.

وكان كلامها فى ختام النزهة النيلية القصيرة:

ـ أسرع، الحق شغلك يا «سوشو أفندى».

وذكّرته بما فاته:

ـ خسارة فيك البوسة. باى باى يا فقرى.

كان المشهد مختلفا عند بكرى؛ بيض ملوّن وملانة وبيرة وحشيش وفسيخ. أكلت نيللى وتلذذت بالزفارة، وشربت ودخّنت وهأهأت.

ـ مساء العنب يا نيللى باشا.

شوّشت مؤخرة نيللى الإعلانية على الفضائيات السياسية، وعلى أى حديث لم يعجبها بين بكرى ورفاقه. هم أيضا كانوا راغبين فى تغيير الجو.

كانت تطارد إعلان الفيلم على المحطّات الفنية، وتنبّههم وهى تشير إلى لقطات التايور الأزرق:

ـ هذه أنا؛ مولد نجمة.

وعاتبتهم:

ـ ألم يكن من الواجب أن تحتفلوا بى بهذه المناسبة.

كانت فرصة لهم للابتعاد عن ضجيج الفضائيات.

احتفلوا بها.

ألبسوها الطرطور الأحمر العالى، وأجلسوها على الكرسى المذهّب الوحيد، وأبو شنب بين قدميها بالجوزة. كانوا يدورون حولها وهم يهزّون طراطيرهم، وبكرى ينشد أمامهم بصوت كهنوتى جليل:

ـ لك المجد يا عروس الربيع؛ لمن تهبين نفسك الليلة؟

كانت الأيادى تمتدّ إليها، وهى تفلت بمهارة. تستدير بخفة ضبّاط السينما، وتصوّب إصبعها إلى وجوههم وتطلق الرصاص:

ـ كل واحد فى مكانه، طاخ.. طاخ..

استمرت فى دور المقاومة، حتى داخت ووقعت فى حِجْر أبو شنب.

ضحكوا، وهى أيضا هأهأت وتعلّقت برقبته:

ـ فتى أحلامى..!

◆ ◆ ◆

انصرف فادى بلا استئذان؛ رمى طرطوره، وتبخّر من الجلسة دون أن يحسّ أحد بانسحابه.

◆ ◆ ◆

فى ذلك الأوان كان الملائكة ينفخون الزهور بألوان الربيع، ويوقظون الرغبات الكامنة فى الجذور. وكانت الأرض تنبض بحنان، وتنفثُ رطوبتها فى شعيرات الطمى.

نشر نسيم الليل بشارة من عطر الزهور البازغة، فتنفسها بكرى بعمق، ثم هزَّ طرطوره ورتّل:

ـ لمن تهبين نفسك الليلة يا عروس الربيع؟

اعتبر رضوان سقوط عروس الربيع المتكرر فى حجر أبو شنب اختيارا حاسما، وقال:

ـ هى اختارته، وهو الآن باشا مثلنا، يعدّ فلوسه بمئات الآلآف، ولابد أن نترك له فرصة.

كان كلامه أقرب لمزْحة، لكن هأهأة نصيف استفزتّه؛ فعاند:

ـ لنكن ديمقراطيين؛ المسألة تخصّ البنت، فلنتركها تعبّر عن رأيها.

هزّت نيللى رأسها هزّات لا معنى لها، لكنهم اعتبروها كافية للتعبير عن الموافقة.

واشترط أبو شنب:

ـ أنا رجل من أهل الطاعة؛ لابد أن أكتب ورقة حتى تكون الخلوة

شرعية؛ سأعطيها خمسين جنيها مهرا، ولها عشرون أخرى مؤخر صداق، تأخذها مع يمين الطلاق وتقطيع الورقة.

◆ ◆ ◆

رفض أبو شنب الزفّة الهزليّة التى قادها رضوان خلفه بالكرافتة والطرطور، وقال بأدب حاسم وهو يحمل البنت على ساعديه إلى غرفتها:

ـ لا مؤاخذة يا باشوات؛ أنتم أسيادى، لكن آخركم فى هذا المقام عتبة الباب.

◆ ◆ ◆

رغم الورقة الشرعية كان ما جرى مخجلا للجميع. ربما كان وجود أبو شنب مصدر ذلك الإحساس، ولو اختلفت الأدوار لاختلف الأمر.

تساند رضوان على نصيف فى الأسانسير وسأله:

ـ ماذا جرى بالضبط يا سيادة المستشار؟

أدار نصيف وجهه للمرآة الكالحة، وحاول أن يتفادى الكلام. كان يفكّر فى أنهم أخطأوا بحرق الورقة، فربّما احتاجوها لمواجهة أبو شنب إذا تطوّر الأمر إلى نتائج محرِجة. وعندما كرر رضوان السؤال جاوبه دون أن ينظر إليه:

ـ أنت أعلمُنا بما جرى يا باشا. دائما أنت أعلمُنا بكل الأمور.

ثم التفت وواجهه:

ـ وأنت من قاد الزفّة.

◆ ◆ ◆

تناثرت الطراطير على الأرض وقد التوت حلوقها تحت دهس الأقدام. عبر بكرى بينها بحذر من يتفادى الأفاعى، ثم وقف على عتبة

نيللى، وسألها بلسان أثقله الخدر:

ـ اصحى وحدّثينى؛ ماذا جرى بالضبط؟

ـ لم يحدث شئ ، كلّه تمثيل.

ولما ألحّ عليها شتمته ورأسها يتطوّح على المخدّة:

ـ أليس هذا ما كنت تريد يا معفّن؟!

◆ ◆ ◆

حاول بكرى الاتصال بأبو شنب طويلا، لكن رنّات الموبايل اختلطت بضجيج الموتوسيكل. كان يطير من شارع إلى شارع، ودخان «الشكمان» يغطّيه بعتمة، بينما انحنت قرون الأشجار مع نسيم الربيع لتطل على المشهد، ونبضت ميكرفونات المدينة بإنشاد خفيض:

إن كان ما سطّرتمو

قدرًا فما هى حيلتى

وقد ارتضيت قضاءكم

وبه اصطنعت مشيئتى

إنّى أطعتكمو فما

وزرى؛ أذنبى طاعتى؟!

كانت الأرض تتأهب لدورة جديدة تحت الشمس، وأبو شنب يتقدّم الموكب بالموتوسيكل.

غيّر الربيع ألوان الحياة، وتفتّحت براعم، لكن بعض الورود بخلت بشذاها، كانت حمرتها خالية من ذلك العبق البلدى القديم، وأوراقها تتغضن بعد قطافها بوقت قصير.

حملت نيللى الورود الثلاث التى أهداها لها قيس إلى جمهور، شمّتها المرأة ثم ألقتها على الطاولة بإهمال:

ـ أرضنا شاخت؛ لا الفواكه لها طعم، ولا الورد له رائحة.

أسندت البنت رأسها على كتفها وعاتبتها:

ـ لماذا لا تسألين عنى يا خالتى؟

تحسّست جمهور لحمَها، وأصغت لخفق أنفاسها، ثم تفرّست ملامحها وسألتها:

ـ ما بك يا بنت؟.. حالك مثل حال ورودك؛ لون بلا رائحة.

لم تنتظر إجابة، كانت تستطيع أن تخمّن الكثير، وأن تحسّ ذلك الإيقاع الخائر تحت البشرة المورّدة.

خمّنت طبيعة ما جرى للبنت بحاسّة كامنة فيها، لكنها لم تشغل نفسها بتقصّى التفاصيل. فضّلت أن تظل بعيدة. تدرك أن اطلاعها على الموضوع عن قرب يحمّلها مسئولية ما، وهى ليس لديها ما تقول.

استدرجتها بعيدا عن الهموم؛ شغَلتها بالحديث عن حفلات تنتظرها، وكلّفتها بإبلاغ البنات بالمواعيد، ثم داعبت أحلامها وبشّرتها:

ـ المخرج سأل عنك، ويبدو أنه يريدك فى فيلمه الجديد.

تغيّر إيقاع نيللى، فقبّلت خدها، وسألتها بلهفة:

ـ سأل عنى بالإسم؟!

ـ أكثر من مرة.

ـ دور أم مشهد جماعى؟

ـ أنتِ وشطارتك.

ـ هل أعجبه تمثيلى إلى هذا الحد؟

ـ بالتأكيد أعجبه شيئا ما، لكننى لا أستطيع أن أخمن ما هو.

ـ يبدو أن الصنّارة غمزت، أليس كذلك يا خالتى؟

المخرج سأل فعلا عن «البنت ذات التايور الأزرق»، لكن معرفته لاسمها كانت إضافة من خيال جمهور. قالت لها المرأة:

ـ لو دخلتِ دماغه سيفتح لكِ الطريق.

ـ يارب.

هدأت قطّة جمهور فى حجْر نيللى، وتصاعد هريرها فى الانفراجة الدافئة بين الساقين. حاولت البنت أن تبعدها، لكن جمهور استبقتها وقالت لها:

ـ دعيها فى حجْرك، تسبّح ربها وتستغفر، حتى القطط ما تسلم من الخطايا.

فهمت نيللى الإشارة المخبوءة فى باطن الكلام، فخجلت وأطرقت.

نكشت جمهور أدراجها، وأهدتها أحد موبايلاتها القديمة وبقايا زجاجة عطر، ثم ربّتت شعرها بحنان:

ـ ما فات مات؛ لكن انتبهى لنفسك منذ اليوم. كل الناس تغلط، لكن حتى الغلط له حدود. فاهمة يا بنت فاتن؟

ثم عطّرت صدرها، ونكشته بخلاعة:

ـ ربنا يستر على البنات.

قيس قَلِق على أبيه، ومُنشغل بأعماله؛ نهاره فى الأرشيف، وليله فى السويتش. يتابع ما يكتبه مدير التحرير، ويحسّ بفخر حين يستشعر لمساته الشخصية فى المقالات، خاصة تلك السطور التى يضع تحتها خطوطا لإبرازها لعين المدير، ثم يجدها منقولة بنصِّها.

كان مشغولا جدا حتى فى أحلامه. لم ينتبه لتغيّر الجو، ولا إلى النفثة الربيعية فى بشرة نيللى أو نظراتها الشاردة. ربما كانت انشغالاته رحمة إلهية به وبالبنت أيضا؛ صَرَفتْه عن ملاحظة حالها وإزعاجها باهتمامه، وعن التفكير فى أزمته المالية الوشيكة بعد رحيل رفيقيه فى المسكن.

صارت لقاءاتهما متباعدة وقصيرة. وكانت البنت ساهمة دائما؛ تكلّمه فى اتجاه بينما عيناها تائهتان فى اتجاه آخر.

أخبرته أنها ستسافر إلى بلدها، وقالت له بتنهيدة:

ـ مشتاقة لحضن كبير.

فتح ذراعيه، وعرض نفسه بتواضع:

ـ تعالى.

ضغطت على ذراعيه إلى الداخل حتى أغلقت حضنه، وقالت:

ـ حضنك لا يتسع إلا لهمومك؛ أبوك، شُغلك، سكنك، هناك دائما شئ يشغلك. وحتى لمساتك لا تدفئنى؛ تهرب منى قبل أن أحسّك، كأننى سأكهربك.

كان عتابها غامضا، لم تكن تعرف على أى شئ تلومه بالضبط، وهو لم يستطع أن يخمّن. غيّرت اتجاه الكلام وموّهت قصدَها:

ـ لم أكن أتصور أنك خجول إلى هذا الحد. وعموما لا تزعل من كلامي، فربما كنت متوترة لأنك ستوحشني عندما أسافر إلى بلدنا. كلّمني هناك كثيرا يا قيس، أحبّ أن أنام على صوتك وأنا أتقلّب بين أحضان ماما فاتن و«ماما ماجدة»، سأقول لهما: «هذا حبيبي».

وودَّعته بقبلة طائرة:

ـ كلّمني باستمرار؛ آلو آلو دائما.

زارت نيللى بلدَها، لكنها لم تجد الحضن الكبير. باتت ليلتين ورجعت.

استقبلتها أمها بجفاء تمثيلى، وعاتبتها على انقطاعها الطويل:

ـ سنة وأنا لا أعرف عنك شيئا، لا مكالمة تليفون عند الجيران، ولا رسالة مع الحاجّة جمهور، ولا حتى سلام مع طير. ماذا أقول لأخوالك وأعمامك لو سألونى عنك؟

ـ وهل يسألون عنكِ أنتِ؟

لعنتها فاتن، ولعنتهم:

ـ سلالة قاسية، وأنتِ ورثت القسوة من الناحيتين.

صالحتها نيللى بموبايل مستعمَل من مخلفاتها، وقالت إنه سيكون وسيلة مضمونة للتواصل بينهما فى أى وقت ومن أى مكان. درّبتها على استعماله، وطال الوقت فى شرح التفاصيل لدرجة أن الأم نسيت عتابها. ابتسمت فى النهاية، ومسحت دموعها فى حضن ابنتها وهى تسمع صوتها عبر الموبايل:

ـ آلو آلو يا ماما فاتن، أنا نيللى، وحشتينى.

ـ الله يرحمك يا تهامى.

تهامى هو أبو نيللى، تتذكَّره فاتن فى كل الحالات وكأنه مرْجع الأفراح والأحزان. تفكر فيه دائما باعتباره الملاذ الأخير، وتعرف أنه سيمدّ يده ذات يوم ويأخذها عنده.

تستعطفه حين تثقل عليها شجونها:

ـ لمن تتركنى فى الدنيا؟

فى ذلك اليوم ابتسمت فاتن لروح تهامى، وجدّدت العتاب:

ـ ابنتك تعوّدت على الغُربة والقسوة مثلك؛ تغيب حتى توجِع قلبى، ثم ترجع وتصالحنى بهديّة.

◆ ◆ ◆

طرحت الأم استفسارات كثيرة، ولم تكن لدى البنت ردود واضحة، لكن كان لديها مفاجآت. ناولتها رزمة فلوس وقالت لها:

ـ عدِّى يا أم نيللى.

وقبل أن تلمس الورق قالت لها:

ـ أحد عشر ألف جنيه بالتمام، سأحاول أن أزيدها أربعة قبل أن ينتهى العام. أريد أن نجدد البيت؛ نبنى طابقا ثانيا، غرفة واحدة واسعة، ودورة مياه بالبانيو والسيراميك، ونحوِّل الحوش إلى حديقة. ابنتك ستصبح نجمة سينما، ولا يليق بها أن تعيش جنب عشّة دجاج.

لم تستوعب فاتن الكلام تماما، وقبل أن تسأل فاجأتها نيللى بشريط الفيلم:

ـ ألم يخبرك أحد أننى أمثّل الآن فى السينما، وإعلاناتى تظهر فى التليفزيون.

طلبت منها أن تستعير جهاز فيديو من أحد الجيران، لكى تعرض لها الفيلم على شاشة التليفزيون. ترددت فاتن قبل أن تلبّى الطلب، ثم رضخت فى النهاية، وجهّزت نفسها للفرجة بدمعة اعتذار للروح الهائمة فى المكان:

ـ سامحنى ياتهامى؛ ابنتك هى التى تريد.

التليفزيون الذى كان تهامى اشتراه من الكويت؛ مهجور فوق طاولة فى إحدى الغرف. دخل البيت بزفّة فرح استمرت طوال إجازة تهامى، وسكت بعدها. غطّته فاتن بثوب أسود قديم وانتظرت عودة تهامى، لكنه مات فى غربته ولم تعد جثته. أصبح التليفزيون المغلق دائما رمزا لحداد طويل أليم؛ صوته يجدد حزن فاتن.

وصلت نيللى الفيديو بالتليفزيون، وأعادت لقطة الزفّة الشعبية أكثر من مرة، واحتضنت نفسَها:

ـ افرحى لى يا ماما.

ابتسمت فاتن لفرح ابنتها، لكنها كانت فى أعماقها حيرانة، وربما حزينة. سألتها:

ـ والجامعة يا بنت تهامى؟

انتظرت الإجابة طويلا، لكن كلام البنت كان فى غير السياق. نفضت يديها من الحديث، ونفخت:

ـ أنت حرّة مع أبيك.

◆ ◆ ◆

استقبلت ماجدة حضور نيللى بحياد، وربما كانت بحاجة إلى وقت لكى تتذكّر. كانت قد وهنت قليلا، وبردت أحضانُها. حتى نظراتها الفرحة بالخيالات تكسّرت بتجاعيد الجفون. راقبت مشاهد الفيديو وهى تتسنّد على خشب الباب، ثم انصرفت إلى عشّة الدجاج لتنتف ريش الملائكة.

◆ ◆ ◆

فجّرت نيللى بقية مفاجآتها فى السهرة:

ـ هالو يا سيادة اللواء، وحشتنى. سلم على سيادة المستشار لو كان جنبك.

ـ هالو بيكو، لا تقلق؛ ليلتان وأرجع. صدّقنى؛ أنا فى بلدنا وماما فاتن جنبى، كلّمها.

ـ حبيبى يا قيس باشا، واحشنى. ماما تريد أن تسمع صوتك.

ـ ما أخبار الفيلم يا خالتى؟.. أخبرى المخرج أننى لن أتأخر. ماما فاتن معك.

حيّر الكلام فاتن، ولم تستطع أن تحدّد اتجاه مشاعرها بالضبط. أصغت إلى مكالمات ابنتها وهى تقلّب خدّيها من يد إلى يد، وتفكر فى ذلك العالم الذى لا تعرفه. فوّضت الأمر فى النهاية إلى تهامى:

ـ أنت حرّ مع ابنتك.

رغم العتاب، كانت تبتسم أحيانا للمكالمات.

كلّم قيس نيللى أكثر من مرّة، لكن مكالمات بكرى كانت أكثر إلحاحا، وصوته يزداد لهفة وهو يتوسل إليها أن ترجع. أغلقت الموبايل على رناته أكثر من مرة وهى فى طريق العودة.

عادت ومعها هدية لجمهور؛ سكّرية من زجاج أخضر على هيئة حمامة؛ الشئ الجميل الوحيد الباقى من جهاز فاتن. لم تستخدمها الأم كسكّرية؛ واستولت عليها البنت عندما كبرت. كانت دائما قرب سريرها، تحفظ فيها البونبونى والملبّس. تمصّ الطعم الحلو، وتكافئ «ماما ماجدة» على بشاراتها.

لم يغفر بكرى لنيللى، لكنه لم يستطع أن يواجهها؛ هو أيضا كان يحسّ بالخجل. لا يعرف مصدر ذلك الإحساس بالضبط، لكن الأرجح أنه راجع إلى شئ يخصّه، شئ حميم جدا. ربما كان السبب إدراكه أنه فقد القدرة على الحسم، وأصبح غير قادر على التفاعل بجديّة مع ما يدور حوله، سواء فى محيطه الصغير أو فى الدنيا الأوسع.

زاد إحساسه بالوهن، وأصبح أكثر استسلاما؛ لم يعد قادرا على الاستغناء عن البنت، ولا على مغادرة مساراته اليومية أو المغامرة بتعديل تفاصيلها المعتادة. يبدو له أن زحزحة أى شيئ سيسقط العالم على رأسه، على غرار «انهيار الدومينو» فى التعبير السياسى الشائع.

اختار فى النهاية أن يتعامل مع الأمور بحياد، وقال لنيللى:

ـ لست أدرى بما جرى فى الغرفة المغلقة، وكل شئ تم باختيارك، وقبضتِ الثمن. عموما الأمر لا يخصّنى ولا يهمّنى.

أدارت وجهها بعيدا عن رائحة فمه، وتفادت أن ترد. فضّلت أن تعتبر جملته الأخيرة نقطة النهاية فى الكلام، وهو تشاغل بلوحته التى لم تكتمل. تأمّل طويلا الجماجم الخاوية والأحشاء المتعفنة، ثم أمسك الفرشاة، وترك ألوان العفن تقطر فى قاع التكوين.

◆ ◆ ◆

تباعد رفاق السهر عن بكرى بعد ليلة شم النسيم، وهو لم يكف عن الإلحاح بالتليفون. لم يستمر طويلا، إذ عادوا بعد فترة لزيارته فرادى، ثم اكتمل عقد الصحبة من جديد.

كان الجنرال فادى أول العائدين. أطرق طويلا، فخمّن بكرى أن الرفاق أخبروه بكل ما فاته أن يشهده فى تلك الليلة، وخشى أن تكون رواياتهم فى سياق لا يرضاه هو لنفسه. هزّ رجليه فى مجلسه المعتاد فوق السرير، وفتح الموضوع:

ـ لابد أنك علمت بما جرى بعد انصرافك.

ـ حكوا لى.

ـ موقف غريب، لا أستوعب حتى الآن كيف حدث.

ـ كان لابد أن يحدث، الجو يسهّل ذلك.

ـ لكننا فوجئنا بجرأة أبو شنب.

ـ لا أظن أنه كانت هناك مفاجأة، بل ربما كنتم جميعا تنتظرون ما فعل.

لم يبلع بكرى المعنى؛ تحفَّز فى مجلسه، وصوَّب إصبعه إلى جبين فادى:

ـ وهل تستثنى نفسك من بيننا؟!

طأطأ الجنرال رأسه للطلقة، تفاداها بصمت طويل وهو يغوص فى خنادق خياله. كان يحس أن الحصار يضيق.

أشفق بكرى عليه وعلى نفسه من المأزق، فنقل الكلام بخفة إلى اتجاه آخر:

ـ لا أدرى لماذا انصرفت مبكرا، كان لابد أن تنتظر لتشهد بقية ما جرى. «النائب الفضائى» هو الذى قاد زفَّة أبو شنب، فعل ذلك بنفس الحماس الذى يتحدث به فى الفضائيات، وبالكرافتة أيضا.

ـ هذا دوره دائما؛ الإفساد، فى السياسة وفى الحياة.

اتّصل بكرى برضوان على الفور:

ـ سلم نفسك عندى بسرعة، الجنرال فادى يكيل لك الاتهامات، ولابد أن تدافع عن مواقفك.

لمّا انتظمت زيارات فادى ورضوان؛ اتّصل بكرى بنصيف:

ـ الخناقات شغّالة بين رضوان وفادى ليلة بعد ليلة، وأنت هارب من مسئولياتك يا سيادة القاضى. الليلة نحتاج حضورك بسرعة، لا تتكاسل.

كان أبو شنب آخر من لحق برفاق السمر، اكتملت الصحبة بحضوره بعد أن اتصل به رضوان ذات ليلة وداعبه بخشونة:

ـ تعال حالا ومعك أوقية من أجود الأصناف. إذا لم تحضر بسرعة سأحضرك بالبوليس. فاهم؟.. بالبوليس. صحيح أنك نصف مليونير، لكننا أصحاب الأمر والنهى فى البلد، وأيادينا طويلة. فاهم يا بغل؟

لم يكن أبو شنب خجلا كما توقعوا، كانت نظراته أكثر جرأة، وصوته أكثر ثباتا. منحهم قرش حشيش مجانا، فناوله بكرى لنصيف، وقال لأبو شنب:

ـ القاضى قبل الرشوة، ولن يحاسبك على ما فعلت.

ـ لم أرتكب خطأ لأرشوكم؛ تزوّجت بورقة، وطلقت طلاقا شرعيا، ودفعت المهر ومؤخر الصداق، وكل ذلك بشهادتكم وبرضاكم.

لم يكن أى واحد منهم راغبا فى فتح موضوع نيللى، وتفادوا أيضا أى نقاش فى السياسة، كركروا بالجوزة وهأهأوا وسط ضجيج الفضائيات بقصف بغداد:

ـ مساء العنب.

تجاوزت نيللى إحساسها بالصدمة بسرعة.

كان الأمر يبدو لها كارثيا وهو فى دائرة التوقعات، أما بعد أن حدث فقد بدا لها اعتياديا، وكأنها عاشته أو تدربت عليه من قبل. الأرجح أنها عاشت مخاوفها طويلا حتى ألِفتْها، وانطوت خيالاتها أحيانا على إحساس ما باللذة، كانت تدريبا من نوع ما.

شغلتها الحياة بأمور أكثر إلحاحا؛ الفلوس، وفرص السينما، وعلاقتها بقيس. تشتتت أفكارها فى مسارات متباعدة، فنفثت ضجرها فى وجه قيس:

ـ لو تحبنى بجد لحاولت أن تفعل شيئا من أجلى. أريد أن أحسّ أننى فى دائرة أحلامك، وأنك سند لى.

حاول أن يخفف عنها بثرثرة طويلة عن الفرصة التى ينتظرها، لكنه خيّب أملها حين حدثها عن المرتب الذى يتوقعه.

ـ فقط يا قيس؟!

ـ ليس مرتب الصحافة هو المهم يا نيللى، هناك فرص أهم للكسب وقضاء المصالح. يمكننى أن أكسب الآلاف لو استطعت جلب إعلانات للصحيفة، ثم أن هناك وزارات تصرف مكافآت سخيّة للصحفيين مقابل الاهتمام بأخبار الوزراء وصورهم، مكافآت شهرية تصل إلى أضعاف مرتباتهم. هناك أيضا فرص لعلاقات يمكن أن تساعدنى فى الحصول على شقة بسعر منخفض وأقساط ميسَّرة. علاقات الصحافة كنز لا يفنى.

كان فخورا بأحلامه، لكنه لا يبدو واثقا.

صارحته بقسوة بأنها تراه مرتبكا، وأقل ذكاء وجرأة من أحلامه، ونبهته إلى أن عليه أن يحسم مسار حياته بسرعة، وحذّرته:

ـ الفرص تتفتّح لى فى السينما، وقد تجدنى مشهورة بين لحظة وأخرى، ووقتها سيحاسبنى الناس على حياتى الخاصة. هل تظن أن جمهورى سيتقبّل أن يكون فتى أحلامى عامل سويتش؛ «سوشو أفندى»؟!

كان يتضاءل أمامها وهى تحدثه عن أحلامها ومهاراتها فى الحياة:

ـ اعتبرنى مثالا لك؛ أحلامى تفرض علىّ أن أتبسّط مع الناس، أن أكون مرنة ولبقة، فاهمنى؟.. لابد أن أجارى الجو، ابتسم لهذا وأتقرّب من ذاك حتى أنال فرصتى. أرجوك؛ حاول أن تفهمنى، هذه هى الحياة.

وعرضت عليه خدماتها وهى تتفرّس ملامحه:

ـ أعطنى فرصة لأساعدك، أعتقد أننى أستطيع التأثير على مديرك، جرّب وعرّفنى عليه. أزورك فى الجريدة، أو نلتقى فى الشارع وكأنها صدفة. فكّر، وإن اقتنعت أخبرنى.

سرحت نظراتها بعيدا بعد ذلك، وانشغلت أفكارها بأمور تخصّها.

طلب المخرج لقاء نيللى.

ـ معقول يا خالتى؟!

حلُمَت حتى أرهقت نفسها:

ـ لابد أنّه سيعرض علىّ دورا مميزا، فلو كانت المسألة مجرد لقطة جماعية ما احتاج الأمر للقاء. أليس كذلك يا خالتى؟

طمعت، وبالغت:

ـ بطولة؟

ضجرت جمهور من ثرثرتها، فنتفت ريشها:

ـ طلبَك وطلبَ غيرَك، ولا نستطيع أن نخمن ما يدور فى رأسه.

احتارت البنت فى لبسها وزينتها. كانت تفضل أن تذهب بالتايور الأزرق، لكن حرارة الجو لم تسمح بذلك. تحمّلت صهد «الجوب»، واشترت «بلوزة» خفيفة سماوية اللون. أعادت تسريحتها وماكياجها أكثر من مرّة، وعطّرت نفسها بأكثر من نوع.

حين التقت المخرج؛ التصقت به حتى يحسّها ويتنفسها بعمق. جلست فى مرمى لمساته، وعدّلت أوضاعها أكثر من مرة؛ لتتيح له الاطلاع على مكامنها من زوايا متعددة.

هو بدا مبتهجا بحضورها، لكن نظراته كانت تطارد عصفورا شاردا فى أحلامه، ويده تنتفض أحيانا بتقلّصات عصبية مفاجئة. حدّثها طويلا عن مشروعاته الفنية، وأخبرها أنه يريد أن يغيّر أسلوبه وموضوعاته، وربما اتجه إلى المسرح، لأن منتجى السينما لا يتحمسون الآن إلا لأفلام

المقاولات و«الإيروتيكا».

لم تفهم الكلام، لكنها انبهرت.

سمعت وسمعت وانتظرت، لكنه لم يعرض عليها شيئا محددا. ودّعها فجأة بعد أن أعطاها كارت عنوانه وتليفوناته، وقال:

ـ ذكّرينى بنفسك دائما، سأحتاج أن أراك أكثر، ولابد أن أدرس شخصيتك جيدا لأختار دورا يناسبك.

سلّمت بطراوة، وذكّرته باسمها بدلال:

ـ اسمى نيللى يا أستاذ.

وكررت:

ـ نيللى.

◆ ◆ ◆

زارت جمهور بالهدية التى أحضرتها من بلدها؛ سكّريّة ماما فاتن الخضراء؛ الحمامة. عبّأتها، ولفّتها بورق الهدايا فى أحد محلّات الحلوى.

احتارت نيللى كيف تبدأ الكلام، وفضّلت فى النهاية استهلالا مبهجا للحديث:

ـ الولد قمر، أبيض بشفايف مثل الفراولة وشعر ذهبى، كأنه نطّة خواجات. لم أنتبه لحلاوته من قبل.

ـ أى ولد يا بنت؟!

ـ الأستاذ؛ المخرج.

ـ وماذا قال لك «الولد» يا بنت فاتن؟

ـ بَصْبَصْ لى، وبصبصت له، لكنه خجول جدا؛ ترتعش يده إذ لمستنى؛ يتكَهْرب يا خالتى.

ـ ما خلاصة الكلام يا روح خالتك؟

ـ لم أفهم، لكن يبدو أنه يريدنى فى أشياء كثيرة؛ سينما، مسرح، لم أعرف ما يدور فى رأسه بالضبط.

ـ وماذا أيضا يا بنت فاتن؟

ـ أعطانى رقم تليفونه وعنوانه.

تشاغلت جمهور عنها، فطأطأت البنت رأسها وتنفست حيرتها:

ـ بماذا تنصحيننى يا خالتى؟.. هو لم يعدنى بشئ.

◆ ◆ ◆

شاغلت المخرج بالتليفون، وزارته أكثر من مرّة. وكثُر كلامُها لجمهور: *«قال لى.. وقلت له»*.

تحسُّ بالحرج أحيانا، كانت تحتاج الى سيناريو يبرر لجمهور تناقض سلوكها ومشاعرها تجاه قيس. بدأت تشكو منه:

ـ يتمسك بى بشدة، كأنه عثر على لقيّة، لكنه لا يعرف ماذا يفعل بها.

ـ وماذا عن عَمْلته معك؟

ـ أى عَمْلة يا خالتى؟

ـ العَمْلة إياها يا روح خالتك، هل تظنيننى بلهاء مثل أمك؟.. أنا عارفة من أول يوم.

طأطأت رأسها وصارحتها:

ـ ليس قيس.

ـ بكرى إذن.

ـ بل واحد من الشلّة.

ـ الباشوات إياهم؟

ـ أوسخهم يا خالتى؛ أبو شنب؛ الخدّام.

ـ الله يخيّبك يا موكوسة.

ولطمتها بالقول المشهور:

ـ «ياريتك يا بوها ما قمت دى القومة، كنت نمت وراحت عليك نومه».

لم تكن جمهور غاضبة ولا منزعجة مما يجرى للبنت. لم تتعوَّد أن ترهق مشاعرها بغير نفسها، لكنها كانت تحس نحو نيللى بشئ ما، أمومة بدون مشاعر. ربَّتت صدرها وطمأنتها:

ـ لا تقلقى؛ فى السوق الآن بالونات بكارة صينى، الواحدة بخمسين جنيها، ترجّع البنت زىّ الفلّ، بختم ربّها.

ولم تبخل عليها بالدرس:

ـ لا تفرطى فى هذا ولا ذاك، الزمن صعب، وكل رجل ينفع فى خانة لا يصلح لها غيره. واحد يحبّ ويدادى، وواحد يفسّح ويهادى، وواحد يصرف، وواحد يفرْفش ولا يفضح، وواحد يحطّ المرَة على رأسه ويرفعها فوق الناس.

ـ كلامك صعب يا خالتى.

ـ الآن كبرت يا نيللى ودخلت دنيا النسوان، العاقلة تفكر هكذا؛ الرجال خانات، وما تأخذينه من هذا لن تجديه عند ذاك. رتّبى الخانات، واحفظى الباقين على الرف. من تتكبّرين عليه اليوم تحتاجينه غدا. اصحى يا بنت وافهمى الدنيا.

تناولت حفنة ملبّس من السكّرية الخضراء؛ الحمامة. دسّتها فى صدر البنت، ثم قَرَصَتها فى حلمتها:

زمان؛ قبل أن تكتسب العين كل تلك القدرة على النظر، كان شعاع الشمس يبدو اكتشافا مدهشا، تطارده البنت الصغيرة بكسرات المرايا، وتمسكه بيديها. كانت أصابع يد واحدة تكفى للحساب، ونظرة واحدة تكفى للرؤية. الآن بعد أن تداخلت الألوان في دورات الأيام المُعادة أصبح شعاع الشمس أكثر التباسا؛ مسكونا بعتمة لا تنظرها إلا العين التي رأت كثيرا.

زمان؛ كان للفتاة سرْب من الحمام تطلقه نظراتها فى كل الاتجاهات، يطوف ويعود بهديله إلى أبراجها العالية. الآن؛ للمرأة بيت بحوائط من ورق، وبانيو يتسع لها وحدها، وسيارة تزعق زمّارتها وهى تخوض بها غمار المدينة. أحيانا تبتسم وهى تطوى إحدى حماماتها العجائز تحت عجلات الغبار.

◆ ◆ ◆

ألقت جمهور درسَها، ثم أمرت البنت أن تطفئ النور وتغلق الباب خلفها بهدوء. سَكَنَتْ إيقاعها الخاص، وقطّتُها فى حجْرها تهرّ وتستغفر.

كان الملائكة يفتحون خزائن الصهد ليجرّبوا طقس الصيف الوشيك، والنيل يتدفّق عبر المواسير إلى الأدوار العليا، ويصب خريره العذب في الحمامات. غسلت نيللى جسدها من صهد النهار وعرقه، وسهرت فى سريرها تعيد على نفسها درس «الخانات».

عِبْرَ الشباك هلالٌ بازغ ونجوم بعيدة، تنفست أحلامها وهى تسند رأسها إلى النجوم، وتمنّت أن تسمع صوت الكروان.

اشتاقت للحضن الكبير، لكنها لم تحاول الاتصال. منذ فترة وموبايل «ماما فاتن» لا يردّ. واضح أن طاقة البطارية نفدت، ولا تعرف كيف تعيد شحنها. تدرك نيللى الآن أن صلتها بذلك العالم البعيد انقطعت تقريبا، وتدرك أيضا أن «ماما ماجدة» شاخت، ولم يعد بمقدورها أن تنتصب طويلا فى حوش البيت لتكلّم الملائكة، ولا أن تسهر جنب الشبّاك لترسل لها البشارات.

طلبت قيس. صوته هو الحضن المتاح فى أى وقت، تحتمى به وتحسّ أن وجوده فى الدنيا يطمئنها. تقول لنفسها: *«خانة مضمونة؛ إن خابت أحلامى، أجد أرضا أسقط عليها»*.

ـ وحشتنى يا «سوشو أفندى».

تنفر أذنه من سماع هذا اللقب، يستشعر فيه نبوءة كارثية تنذره بخيبة أحلامه فى الصحافة؛ «سوشو» إلى الأبد.

ـ دقائق، وسأطلبك.

مشغول، أو ربما بجواره زملاء يخشى أن يتلصّصوا على عواطفه.

حدّثته فى تلك الليلة عن انشغالها بمستقبله. نصحته أن يستغل احتياج مدير التحرير له، ويضغط عليه لتحويله إلى الكادر الصحفى، وخطّطت له:

ـ دعْه يحس أنك تعبت من الجمع بين عملين، ولا بأس أن تقصّر أحيانا. احتياجه لك فرصة للضغط عليه؛ الدنيا مصالح.

هو كان محتارا. سمع؛ لكنه لم يستوعب نصيحتها بالضغط على المدير. يعرف أن وضعه مهزوز، فلا يزال مجرد عامل مؤقت فى «السويتش»، ويمكن أن يطردوه فى أى وقت. وهناك كثير غيره من الإداريين يرحبون بلعب دوره.

أحسّت حيرته، فتركته يفكّر فى أموره بنفسه، وانتقلت إلى ما يخصها:

ـ استعد يا قيس؛ ستنفجر القنبلة الفنيّة فى الموسم المقبل؛ «فاتنة السينما والمسرح.. نيللى».

أخبرته أنها تنتظر فرصة مهمة، لكن لم تُسهب فى الشرح. أعطت نفسها مهلة حتى تعيد نسج التفاصيل على نحو مبهر. وطلبت منه أن يبحث عن محل راقٍ للكى والتنظيف، لكى يجهّز ملابسها للإنطلاقة الفنية المرتقبة:

ـ نتقابل بكرة، أعطيك الملابس، وأحكى لك.

ونبّهته أكثر من مرّة:

ـ أهم شئ التايور، أتفاءل به.

◆ ◆ ◆

تمسح نيللى عرقها وتنسج أحلامها على مهل؛ وهى تحدّث قيس عن اهتمام المخرج بها. يصغى، وهو ينقل كيس ملابسها من يد إلى يد. لم يكن

الكيس ثقيلا، لكن كتفه تهدّل قليلا، ربما تعبيرا عن الاهتمام. اضطر أن يحمله إلى منزله لأن ذلك اليوم وافق عطلة محلات الكيّ والتنظيف.

ارتقت السلالم المتآكلة أمامه بحذر، وهى تسدّ أنفها وتنفُخ بين حين وحين. لم تكن روائح العطن نفّاذة إلى هذه الدرجة، ولا حتى غريبة عليها، لكن لقطة التأفّف كانت ضرورية. تخبّطت فى عراء السطح بين حبال الغسيل حتى دخلت الغرفة، وتنفّست قرفَها:

ـ مزبلة يا قيس

حاول أن يشغلها بلمسات متوددة لكنها نفرَت. فى الحقيقة؛ كانت تشتاق للمسة، لكنها تكتمت بروقها الحميمة ونفرت إلى السلّم، وهى تمرر أصابعها على حبال الغسيل.

ـ لمن هذه الملابس؟

ـ الجيران؛ السطح مفتوح للجميع.

ـ جميل؛ معرض مكشوف للكلوتات وقمصان النوم.

طأطأ قيس. لم يكن راغبا أساسا فى اطلاعها على مسكنه، لكن الظرف حَكَم. هرب من الموقف بالعودة إلى السؤال عن أخبارها مع المخرج، فأعادت ما سبق أن قالته باقتضاب:

ـ أحيانا يتحدّث عن فيلم، وأحيانا عن مسرحية. يكتب النَصّ بنفسه، لكنى لا أعرف على أى شئ ستستقر أفكاره.

خمنت ما يمكن أن يدور برأسه؛ فقطعت عليه الطريق:

ـ فنّان عظيم، لكنه مؤدب مع البنات وخجول جدا جدا؛ ترتعش يده إذا لمسنى صدفة.

أوصد خازن الصيف أبواب الصهد، وأطلق نسمات رخيَّة؛ رفت لها نتف سحب مطبوعة بملامح ملائكية. فتحت نيللى النافذة على ليل الصيف، وتهادت فى المسرح السماوى بكبرياء نجمة بازغة، وهى تلوّح لجمهورها الأرضى بقبلات وابتسامات. كان يمكن لها أن تتوهم ملاكها الحارس وهو يرافق خطواتها الأولى بعزف حماسى من موسيقى الكباريهات مع انفراج الستار.

المخرج خلفها على طاولة، ينخس الأوراق بسن القلم ويحاول من جديد. تغلبه رعشة يد فيمزق المشاهد المعادة، ويتمتم متسائلا: «*أليس هناك جديد؟*».

هى تعرف أن سؤاله ليس لها، بل لا تفهمه أصلا. تتعامل معه كصبى يرمى حصى الأسئلة فى فضاء مجهول. تملأ كأسه وتربّت رأسه، ثم تعود إلى النافذة.

كل تلك الليالى؛ كان كل شىء معادا؛ أوراق ممزقة على طاولة، نصف كأس فارغ، نصف الكأس الملآن، فراشة ترفّ حول مصباح، سرير فى خلفية المشهد، وشباك مفتوح على ثرثرة الشارع.

◆ ◆ ◆

ظلّت نيللى قلقة فى انتظارها طوال الصيف. تجمع مزق الأوراق فى حقيبتها وتحاول بصبر أن تفهم ما يحاوله المخرج. شغلها ذلك عن الانتباه لقطرات الدم التى تفلت فى ملابسها الداخلية، والتى أصبحت أكثر غزارة.

يقلق بكرى من غيابها المتكرر، فيلحّ فى طلبها بالتليفون. تردّ أحيانا

باقتضاب:

ـ عندى بروفة.

تعامله وكأنها أصبحت نجمة فعلا، وتتعمد إيهامه بأنها تخفى أسرارا. تقول له ولرفاقه:

ـ انتظروا المفاجأة.

تزهو بألاعيبها أمام جمهور. تضحك وهى تعيد عليها أحاديثها مع قيس وبكرى وزميلاتها من بنات الكباريهات، وتبدو أحيانا كأنها تسخر من نفسها.

لا تصبر جمهور على ثرثرتها، فتقرص شفتيها لتُسْكتها:

ـ اكذبى على الناس كما تشائين، ولكن إيّاك أن تغمضى عينيك وتصدّقى لسانك. الثعبان وحده يفعل ذلك؛ يشمّ الأشياء ويراها بلسانة، ولذلك تجدى لسانه مشقوقا، كما أنف الانسان؛ بفتحتين. لو صدّقت أكاذيبك يتسمّم كيانك.

تطأطئ نيللى للنصيحة، لكن جمهور لا تصدّق سكوتها؛ تعرف أنها ستظل مسكونة بكلام وخيالات.

تحتضنها بحنان، وتهمس فى أذنها:

ـ الكذب أيضا صنعة يا بنت فاتن.

تتقلّب نيللى فى أحلامها على إيقاع أنغام ملاكها الحارس، لكنها تصحو أحيانا فزعة وسماء الليل فى حيرة بين صيف وخريف. تقلقها وجوه الملائكة، بابتساماتهم الغامضة ونظراتهم المشتتة فى الآفاق.

وفى ركن ما من السماء؛ كان يمكنها أن تتوهّم الملاك السهران، وهو يقلّب فى الدفاتر القديمة، محاولا أن يتذكر كيف تجرى الأمور بالضبط.

كانت مهمّته صعبة؛ فالتقاويم مثقلة بالتفاصيل؛ وحواف الرسوم قد تآكلت لدرجة تجعل تذكّر مساراتها بدقة أمرا مُجهدا.

لمّا التوَتْ قدمُها خمنت أن ملاكها الحارس تخلّى عنها. لاحظت ذلك في العثرات المتكررة في حُفر الطريق، ولسْع الأصابع في حواف الأواني الملتهبة. حتى الإبرة كانت تفلت من خروق الأزرار وتخزّ أصابعها.

لم تلاحظ نيللى أنها صارت أقل انتباها لما تفعل، وربما أكثر انشغالا بهواجسها. ركّزت خواطرها على فكرة تخلّى الملاك عنها. كانت عاتبة، لكنها لم تتوسل إليه أن يعود إلى مهمته. كانت تشيح بوجهها عن ذلك اللامرئى، وتتكتّم ألَمها في صمت عنيد. لا تمكّنه من الشماتة.

◆ ◆ ◆

نزفت نيللى، وكان الدم أغزر من كل المرّات التى احتفظت بها سرا. ارتبك بكرى، واستدعى اللواء فادى لينقلها بسيارته إلى أقرب مستشفى. سدّد مبلغا تحت الحساب، وانصرف بعد أن شرح للطبيب ظروف البنت وعلاقته بها، وصارحه بشكوكه. لم يكن قادرا على احتمال البقاء بجوارها. عاد مع فادى إلى شقته، واستدعى بقية الرفاق بالتليفون. خمن أن البنت حامل، وقدّر أن الأمر قد يسفر عن مشكلة قانونية معقدة تستدعى وجودهم إلى جواره.

تقاطعت احتمالات كثيرة فى رأس بكرى، لكن تخمينات رفاقه سارت فى اتجاه واحد؛ وحدّد المستشار نصيف المتهم بحسم:

ـ هو أبو شنب ولا أحد غيره، عمل عمْلته فى تلك الليلة وهرب.

اتصل به بكرى:

ـ أين أنت يا بغل؟

ـ ما الذى ذكّرك بى يا باشا؟ أنا الآن فى خيمة الخِدْمة، رمضان كريم.

ـ اترك كل ما يشغلك وتعال فورا.

ـ لا أستطيع أن أتحرك من مكانى؛ إلا بعد أن أُطعم ضيوف الرحمن.

ـ تعال بسرعة، هناك كارثة تخصك.

احتاط بكرى فى كلامه، ولم يصارحة بالموقف حتى لا يهرب. وتلقّى أبو شنب الكلام ببرود، قدّر أن الجماعة يحتالون لمصالحته بعد أن شحّ «الصنف» فى رمضان. استمر فى الخِدْمة بهدوء؛ لف الحزام الأبيض حول وسطه، وحمل الفوطة على ذراعه، وانحنى يرتّب الأطباق والأكواب ويعدّ الموائد. كانت رائحة الطعام الفوّاحة تفعم قلبه بالكرم والحنان.

◆ ◆ ◆

ينشغل أبو شنب فى رمضان بالخدمة فى موائد الإفطار الخيرية التى يقيمها الأثرياء حول مسجد «ستنا»، ويحس أنه يؤدى بذلك تكليفا مقدسا. يخدم بتواضع، ويُطعم بسخاء، ويسعد بما يفعل كأنه صاحب الخيمة والوليمة.

تبرق عيناه وهو يراقب تلذّذ الأفواه بالأكل والشراب، رغم أنه شخصيا لا شهوة له فى الطعام. متعته الوحيدة فى الحياة الجوزة، وإذا كان لكل نفس جنّة تناسبها؛ فجنّة أبوشنب من نار ودخان.

ذهب إليهم بعد الإفطار ومعه لفّة لحم من بواقى ضيوف الرحمن، و«قرش» من أجود الأصناف.

كان استقبالهم له عاصفا. وهو استمع بهدوء، ثم قال ببساطة:

ـ أنا رجل من أهل الطاعة، وكل شئ تمّ بالمشيئة.

ـ أى مشيئة يا نصّاب؟ أنت ضيّعت البنت، ووضعتنا جميعا فى موقف حرِج.

ـ وما علاقتكم بالأمر يا باشوات؛ هى طليقتى، والولد ولدى، ومصاريفه ستكون من جيبى.

ـ وكيف نثبت الولد فى سجلات المواليد؟

ـ اردّها لعصمتى من جديد.

ـ وهل تقبل هى ذلك؟

ـ إذا لم تقبل؛ يكون الأمر غير الأمر، والولد ليس ولدى. من يضمن؟

تفرّس وجوه الأربعة، وسألهم وهو يتحسّس شاربه الشوكىّ:

ـ صحّ يا باشوات؟

هدّأ كلام أبو شنب خواطرهم، لكنهم نسوا هذا الحوار بعد ذلك، ففى اليوم التالى أبلغ الطبيب بكرى أن التحليلات أثبتت عدم وجود حَمْل، ثم نصحه أن يعرض البنت على طبيب آخر، وحدد له الاتجاه بالضبط:

ـ الأورام.

◆ ◆ ◆

قال طبيب الأورام:

ـ «كانسر سرفكس».

وشرح له أنه أعاد الفحوص أكثر من مرّة ليتأكد:

ـ الحالة نادرة؛ فسرطان عنق الرحم لا يظهر عادة فى هذه السن المبكرة، لكن إن حدث ذلك فإنه يكون شرسا جدا وفتّاكا.

ونصحه أن يحاول إدخالها معهد السرطان الحكومى:

ـ لابد أن أصارحك حتى لا تكلّف نفسك كثيرا؛ لا أمل فى الشفاء، والنهاية مسألة وقت.

◆ ◆ ◆

تأمّل بكرى البنت مثل شعاع غارب، وصارح نفسه بأنها كانت تضىء ذاكرته بألوان الحياة، وتشحنه مشاغباتها بقدرة على مقاومة النسيان. الآن يغوص فى عتمته.

كان مُرهقا بأفكاره.

صمت طويلا قبل أن يجد ما يقوله:

ـ تشجعى يا نيللى، وثقى أنك لن تحزنى ولن تتألمى بعد ذلك، فنحن لا نحس الحياة إلا فى الحياة.

نَفرَت جمهور من حديثه، ولامته على فجاجته، ثم سحبته من يده وانصرفا من المستشفى. أما نيللى فسمعت ووجمت، ظلت تتنفس رائحة الكلام وهى ترقب انصرافه.

يحسّ بكرى أن البنت تخصّه وحده، ولهذا لم تطرأ على باله فكرة إبلاغ أهلها. لكن جمهور فكّرت طويلا، وانتهت إلى إهمال الأمر. قدّرت أن معرفة الأم لن تقدم ولن تؤخر فى مسارات العلاج. ثم أن حضورها قد يورّطها فى استضافتها، وقد تحتل المرأة شقة بكرى، والأمران مرفوضان.

صارحت بكرى بقرارها دون أن تشرح الأسباب، وقالت بحنان وهى تربّت كفّه:

ـ لن تجد أهلا أحنّ منّا؛ أنت أبوها وأنا أمها، وربنا يقدّرنا.

فجّرت لمساتها مشاعره، فتشبّث بيدها، واستعطفها:

ـ لا تتركينى وحدى؟

ـ وماذا بيدى أن أفعل؟.. سأطمئن عليك بالتليفون كلّما استطعت.

ـ يمكنك زيارتى أيضا.

ـ مستحيل يا بكرى بيه، وضعى لا يسمح لى بزيارة رجل غريب؛ مستحيل.

ـ لكنك فعلتِها من قبل.

ـ كنت بصحبة نيللى، الآن الوضع اختلف.

أوصلته بسيارتها أمام منزله، ووعدته:

ـ سأحاول الاطمئنان عليك قدر الإمكان، لكن فى الحدود التى تناسبنى.

ودّعها على الرصيف بإطراقة دامعة، وهى لوّحت له بقبلة من نافذة السيارة:

ـ باى باى يا نور عينى.

ذلك المساء؛ تشاغل بكرى بلوحته. تأمّل بياض القماش المحيط بكتلة الألوان، ثم أضاف للمشهد عظام أصابع تحاول الإمساك بالصخرة الهاوية في فراغ اللوحة.

عندما توافد رفاق السهر؛ حاول بكرى أن يشغلهم بحالته الفنية. لكن استقبالهم للّوحة كان فاترا، بل وساخرا أحيانا. قال نصيف إنه يفضل الألوان المبهجة والتكوينات الواضحة، وتحفّظ فادى:

ـ الفن المبهج يكون أحيانا صناعة أوهام. يستطيع أى فنان أن يرسم شجرة، لكنه لا يستطيع أن يطعمنا من ثمارها، تماما مثلما يحدثنا «رضوان الفضائى» عن الديمقراطية، ولا نرى غير الدم.

رفسَ رضوان الكلام:

ـ دعك منى الآن، وفهّمنى يا «جنرال الماكياج»؛ كيف تقول ذلك ومهمّتك الآن حماية انتاج مستلزمات التجميل والتزويق. واضح أنك لا تفهم فى الفن، وكل ثقافتك من «التوجيه المعنوى».

دارت الجوزة، واشتد النقاش، وعلت الهأهآت.

هأهأ أبوشنب، وأخذته الخفّة؛ فدسّ لسانه بين المتكلمين:

ـ صدقونى يا بشوات؛ يخيّل لى أننى أرى كثيرا من هذه الأشكال فى بقع المجارى.

زَجَره بكرى، ونبّهه بغلظة إلى أنه مجرد خدّام. طأطأ أبو شنب رأسه للكلام حتى انتهى، ثم قال له:

ـ أنا خدَّام؛ صح. لكنها خدمة محبة لا مذلّة؛ أخدم من أحب وأضع رأسي تحت رجليه، وأتركه وقت أحب. خدمة مزاج، لا يربطني بها أجر ولا وظيفة. السلام عليكم.

نهض وهو يعتزم ألا يعود إلى ذلك المجلس.

يوم القبض على صدّام؛ أحسّ رضوان بالراحة كأنه أنجز للتو مهمّة تخصّه. لبس الكرافتة، وخاطب رفاقه بآداء تليفزيونى رصين:

ـ سيداتى ساداتى؛ الحكاية انتهت.

ثم سحب نفسا طويلا، ونفث دخان الجوزة فى وجه اللواء فادى مقهقها:

ـ فاصل، ونواصل من عاصمة عربية أخرى.

◆ ◆ ◆

صاحَبَ الملائكةُ ليلَ الخريف الطويل بعزفٍ من التنهّدات، واللواء فادى يتمهّل بسيارته عائدا إلى بيته فى «ثكنات المعادى».

حاول أن يتنفس ذلك العبق الذى توهّمه فى أسوار الياسمين، لكن الشذى كان أبعد من ذاكرة الموسم، وحرائق القمامة تزكم أنفه، وتزحم مخيّلته بأخلاط من مشاهد تفجيرات العراق. عبَر عتمة المدخل وهو يفكّر فى أن التاريخ لا يصنعه الأبطال فقط، وإنما الخونة أيضا.

فوق المرآة الكبيرة فى صدر الصالة نوط الشرف العسكرى. على اليمين صورة زوجته بشريط الحداد الأسود القديم؛ عشرون عاما. على اليسار صورة أخرى لإبنته الوحيدة؛ التى رحلت مع زوجها الى السعودية. لا يعرف عنها الكثير؛ تقضى أغلب إجازاتها فى أوربا، وحتى عندما تأتى إلى مصر لا تهتم به كثيرا. زيارة سريعة، وهدايا لا يستعملها غالبا؛ عباءة؛ بخور؛ مسبحة. تحتضنه بحياد، وتحدثه بلهجة لا يحبّها: «ايشلونك بابى».

تجوّل فى الشقة بملابسه الداخلية، كان يبحث عن شئ ما؛ يحاول أن يتذكّر نفسَه.

ارتدى زيه العسكرى الكامل وعلّق شارات الرتب والنياشين، ثم حشا مسدّسه على عجل كأنه ذاهب إلى الميدان.

تقدّم بثبات، وظل يطلق الرصاص على خياله فى المرآة، حتى تناثر زجاجها فى كل الأنحاء.

ادّخر الرصاصة الأخيرة لنفسه:

ـ طاخ.. طاخ.. طاخ..

◆ ◆ ◆

ـ طاخ...

كان بكرى ضجرا بوحدته؛ قلّت زيارات أصحابه بعد مرض نيللى، ثم هجروه تماما بعد انتحار فادى. يشيخ فى فضاء ذاته، وحتى خياله يشيخ معه. يحسّ فى وحدته بمشقة الحياة؛ أن يتحرك ويأكل وينام ويدخل الحمّام. حتى الكلام أصبح مُجهِدا، وحركة أفكاره ثقيلة. يتحسّس جبينه بخشونة، وكأنه يحرّك تروس دماغه يدويا لينقلها من خاطر إلى آخر.

أحيانا تداهمه أخلاط متقطّعة من الأفكار والأحاسيس، بقايا من ذكريات حياة. يُطرق وهو يتأمل نفسه بحياد. ضعف جهد البطارية الطبيعية بداخله، وأصبح عليه أن يساعد فى تحريك نفسه ليستجمع تلك البقايا الباهتة. يفكّر: *«الشيخوخة فُرجَة سخيفة ومملة»*.

زارته المرأة ذات الرداء الأسود، احتضنته بشوق الأصحاب القدامى:

ـ كنت أخشى ألا أجدك؛ الموت يسبق خطوة الحبيب لحبيبه. سلامات يا عوض.

بدت صادقة فى مودتها، فأسلم نفسه لقبلاتها وأحضانها وهو ينبِّهها باستمرار:

ـ اسمى بكرى.

ـ بكرى أو عوض؛ كلّه واحد. وهل كنت تستطيع أن ترفض لو أسمتك أمك «خيشة»؟

تفلسفت ووعظت:

ـ الاسم تذْكَرة سفر؛ نرْكب، ونرميها آخر الرحلة.

فردت جسمها على السرير، ونامت. وهو طأطأ رأسه للكلام، وجلس يتأمل لوحته التى لم تكتمل. أضاف لها عدة عيون تشع داخل التكوين بزرقة شبحية.

صحَت المرأة، والألوان لا تزال تلهث فى عروق بكرى. تثاءبت فى وجهه:

ـ كيف تقضى الأيام هكذا وحدك؟!

ـ كما ترين؛ أعدّ أنفاسى.

أشاحت عن ألوانه القاتمة، وزجرته:

ـ يارجل؛ اترك نفسك للفرح تسعد.

ـ الحقيقة؛ الفرح يحايلنى، وأنا أتدلّل.

ـ أليس لك أولاد؟

ـ ربّما.

أهملت كلامه، وسألته عن الأكل. ألحّت عليه أن يطلب سندوتشات «شاورما»:

ـ ولا تنس السجائر، وكارت الموبايل يا «سى خيشة».

لم تكن كل الألقاب التى تخترعها له بهذه السماجة، أحيانا تدلّعه وهو يتبختر أمامها غارقا فى تأملاته الفنيَّة:

ـ تعال جنبى يا «قنصل الوزّ».

يتلقى التعبير بذهن مثقف لا يفهم تلك اللغة السفلية، ويرتسم فى خياله أطياف محفل دبلوماسى للطيور، هو فيه «قنصل الإوز» المختال بريشه الزاهى وخطوته المميزة. لم يفهم أن التعبير ينطوى على ازدراء لرجولته، فذكر الإوز معروف بضعفه فى مواقع العشق والوصال، يفرِّط فى

رحيق بهجته قبل أن يتواصل مع أنثاه، ويرقد خلف أقدامها هامدا.

ظل سعيدا بالحالة التي فرضتها على مدى يومين. وحين رحلت؛ ودّعها حتى باب الشقة بإطراقة دامعة. ربّما خمّن أنه لن يراها بعد ذلك.

◆ ◆ ◆

اتّصل بجمهور:

ـ أحتاجك جنبى.

صوتها ودود دائما، وعامر بتلاوين الحنان. تتنهّد وتتوجّع لهمومه، لكنها لا تعد بشئ:

ـ سامحنى؛ حالك صعب على قلبى، لكنى لا أستطيع أن أفعل أكثر من الاتصال بالتليفون؛ لا تحرجنى بإلحاحك.

يتشبث بالتليفون، ويلف ويدور فى الكلام، وهى تنبّهه دائما:

ـ ما باليد حيلة. أنا امرأة عزباء، وشرع ربّنا معروف.

تتوحّد مع هرير قطّتها، وتسكن إيقاعها الخاص. واضح أنها رتّبت حساباتها جيدا.

يصارح بكرى نفسه بأنها لفتت انتباهه من أول لحظة.

تعوّد فى شبابه أن يتأمّل الأشياء من أعلاها لا من أسفلها؛ الثمرة قبل الجذور، خضرة الأوراق قبل جذع الشجرة. الآن يتأمل الجذوع، ويحسد أولئك الذين يدبّون على الأرض بخطى ثابتة مثل جمهور. تعجبه أيضا قدرتها على اصطناع الألفة.

يفرح حين تصحبه لزيارة نيللى. يتنفّس حضورها بامتنان، ويرتاح للمساتها وهى تسنده بحنان، وتنفث تنهّداتها الدافئة فى وجهه.

ـ قلقانة عليك يا بكرى بيه.

تمسّك بيدها بعد أن أوصلته أمام منزله:

ـ لا أستطيع أن أستغنى عن وجودك جنبى؛ تعالى عندى، أو خذينى معك.

ـ الوضع لا يسمح بذلك أبدا، أبدا.

ـ لو المسألة مجرد ورقة عرفية؛ نكتبها.

ـ كلامك يصلح لبنات الشوارع، أما الزواج فى شرع الله؛ فهومأذون بجبّة وقفطان، وشهود.

ـ موافق.

بدأ المشهد كلّه تمثيليا، لكنه تحوّل بسرعة إلى حقيقة.

كانت جمهور جاهزة بالمأذون والشهود؛ استدعتهم بالتليفون.

وقّعت وانصرفت. ووقّع الشاهدان، وانهمكا على الفور فى تنظيف الشقة وترتيبها، وتخزين «كراكيب» بكرى فى غرفة نيللى. عادا فى الصباح التالى؛ ومعهما أريكة تصلح لجلوس ونوم جمهور، وثبّتا على باب الشقة لافتة؛ «بكرى بيه وحرمه نعمت هانم الشهيرة بجمهور».

هى جاءت مع العصر بحقيبة ملابسها وقطّتها. حيّته بابتسامة محايدة

ـ صباحية مباركة يا عريس.

تتعمد جمهور أن تستدرج بكرى للحديث عن عائلته.

هو يدرك أنها تعيش بأفكارها فيلم «صراع الورثة»، ويحرص بدوره على أن يقلقها بحكايات من خياله

فى الحقيقة، هو لا يعرف الكثير عن عائلته. كان أبوه موظفا، استقر فى القاهرة وانقطعت جذوره الريفية. خلع نفسه من أسرته ليتخلص من ضيافة أقاربه الذين يفرضون أنفسهم عليه فى زياراتهم للقاهرة. كانت ضيافتهم ترهقه، ومبيتهم يربك المكان، ويحرجه مع زوجته. حاول أن يصدّهم بكل الطرق، ولّما عجز عن الحسم؛ صدّر لهم وجه أم بكرى الساخط، أجبرهم على الجفاء.

مات الأب وبعده الأم، ولم يهتم بكرى بأن يخبر أيّا من أقاربه لحضور العزاء. لم يكن يعرف خريطة العلاقات وسبل الاتصال، ولم يكن هناك مجلس للعزاء أصلا، تلقى مواساة الجيران على السلالم.

عموما لا توجد علاقات بين بكرى وأقاربه الآن، لكنه ينتحل لنفسه بعض حكايات أبيه معهم ليقلق جمهور. يحدّثها عن فقرهم وخشونتهم، ويقول:

ـ لابد أنهم سيعودون للظهور عندما يقرأون خبر موتى فى الصحف. هم طمّاعون، ولا يضيعون فرصة للهبّش.

ويتعمَّد أحيانا أن يجْرَح استرخاءها بالحديث عن ابن الألمانية:

ـ من يدرى؟.. قد يطرق بابى ذات يوم.

ـ هل أنت واثق من وجوده يا بكرى؟

ـ قد يكون الأمر مجرد حكاية اخترعتها الألمانية لمضايقتى، لكن ظهوره سيكون مشكلة.

ـ وكيف يمكن له أن يثبت علاقته بك بعد كل تلك السنين؟

ـ المشكلة ليست فى الميراث فقط كما تفكّرين، ظهوره سيربكنى، وأمّه لن تعدم حيلة لابتزازى، أنت لا تعرفين مكر الأجانب.

ثم يلعن الجميع، ويضرب أكثر من عصفور بجملة واحدة:

ـ عموما عقد الملكية ضاع منى قبل أن أسجّله، ولا توجد أى أوراق تثبت ملكيتى لهذه الشقة.

يرمى الكلام ويحوّل وجهه بعيدا، لكنه يراقب تعبيرات وجهها الصامتة بحاسة غامضة. يعرف بخبرته كفنان أنه حتى الأعْمى يحسُّ بالألوان، يستشعر ذبذباتها وإن كان لا يراها. هو كان يحاول أن يستشعر ألوان حالات المرأة دون أن ينظر إليها، وهى أيضا كانت تحاول أن تلتقط إيقاع مشاعره بحاسة كامنة فيها، وبدون كلام.

لا يَخفى عليها مكرُه.

◆ ◆ ◆

تلك الليلة؛ انصرفت جمهور عن كلام بكرى، وانصرف هو إلى لوحته.

لاحظ أنه لم يستخدم فيها الأصفر ولا الأخضر. يعرف بحكم خبرته بالألوان أن الأصفر هو أول لون يظهر مع بزوغ الضوء، وأن الأخضر آخر لون يغيب. أدرك أنه كان طوال اللوحة خارج الأوانين.

(جماجم لها ملامح أبواب ومكاتب وعربات، مشبوكة ببقايا هياكل عظمية وعفن أحشاء. عفن رمادي مخضب ببياض وحمرة الصديد، تجذّرت ألوانه في أرضية المشهد، وشكلت قاعدة صلبة لمدينة تنزف

عروقها في القاع. يهم الدم بالإحمرار، لكنه يقطر في قاع اللوحة خائرا خامدا.

انتشرت عظام الهياكل مكونة في انفراجها أو تقاطعها شوارع وميادين، وامتدت خيوط العفن في شبكة عنكبوتية معلّقة على أعمدة مقوسة من سلاسل فقريّة، تتدلى منها عيون تشع داخل التكوين بزرقة شبحية، بينما قبضت على أطراف المشهد عظام أصابع تحاول الإمساك بالصخرة الهاوية في فراغ اللوحة.

اكتشف بكرى أنه لم يعد عنده ما يضيفه للوحة؛ نضب ذلك الشعاع الذى كان يضيئه بالألوان، أيا كانت تلك الألوان.

انتهت.

زمان؛ فكّر أن يسمى اللوحة «سقوط المدينة» ليضفى عليها بعدا سياسيا واجتماعيا يغرى النقاد بالحديث عنها، لكنه استقر الآن على تركها بدون اسم. اكتفى بتوقيعها بلقبه الهزلى وبحروف كبيرة؛ «**بيكو**».

اكتشف أن هذا هو العنوان الأنسب.

ظل طوال الليل أمام اللوحة وهو يكرر الاسم بين حين وآخر. يدير وجهه صوب جمهور، ثم يمط رقبته مثل إوزة ويهتف:

ـ بيكو.. بيكو..

يهتف ويضحك، وهو يحاول أن يتشبث بالمشهد الختامى فى فيلم حياته الطويل:

ـ بيكو.. بيكو..

يدرك الآن أنه لم يعد هناك وقت لإضافة، وأن الباقى هو نزول تيترات النهاية؛ أسماء مصممى المناظر والموسيقى التصويرية والديكور والماكياج.

جمهور على الأريكة؛ فى حال بين النوم واليقظة، وقطّتها تهرّ فى حجْرها. تتسمّع أنفاسه، وتلاحظ تلك الثغرات التى يلوح منها طرف الخيط الأسود. تتلقى الإشارات فى صمت، وتنتظر ما لابد أن يحدث. جاوبت نداءاته فى أغلب الأحيان بابتساماتها المحايدة المعهودة، وهى مغمضة العينين، وهو ظل يحاول أن يتذكر نفسه حتى الغمضة الأخيرة:

- بيكووووو..

زار أبو شنب نيللى، حمل معه باقة زهور من تلك التى يشتريها زوار المقابر من على الأرصفة المجاورة لمسجد «ستنا». لم يمكث جنبها طويلا، تمتم بدعاء، ودسّ فى صدرها خمسة جنيهات. نفرَت من لمسته ورائحته، وتفادت نظراته، وحين استدار منصرفا لاحظت للمرة الأولى نحول ساقيه ودقّة كعبيه؛ خمّنت أنه الشيطان.

أفزعتها توهّماتها، فقالت للممرّضة:

ـ ارمِى الورد يا سستر، هذا المخلوق نجس؛ لا يعيش إلا فى دورات المياه والأماكن النجسة.

◆ ◆ ◆

تطأطئ الأشجار أغصانها؛ وهى تنزف ألوانها، وتتنفس روائح أوراقها الذاوية.

يوما بعد يوم؛ عرّى الخريف أشجار الحديقة، ما عدا واحدة من أشجار الزينة ظلت تتشبّث بأوراقها، وفوقها كروان تتردد تسابيحه فى الملكوت. لم تستطع نيللى أن تخمن نوع الشجرة لكنها أحبتها. تحتضن ما تبقى من خضرتها بنظراتها، وتقول للممرضة:

ـ شجرة جميلة يا سستر، تشبهنى، وربما كان اسمها «نيللى».

◆ ◆ ◆

صارت أحلام نيللى كثيرة.

تتبع حبيبها فى الحلم بقلب ملهوف. ليس قيس، لكنه كلّ ذلك الحب، ربما كان هو الأصل المحتجب. غبش فجر خارج فصول الزمان،

وحارات شديدة الالتواء.

يسبقها بخطى نشطة، وتتبعه ولهانة.

يختفى فى أحد المنحنيات، وتواصل طريقها إلى خلاء موحش. تفزع من حلمها:

ـ أين أنا يا «سستر»؟

◆ ◆ ◆

تمر بها أخلاط من أماكن ووجوه فارقتها منذ زمن طويل، أحيانا ترى وجوها وأماكن لم تصادفها، لكنها تقدّر حين تصحو أنها كانت موجودة دائما، وإن لم تنتبه لها فى الحياة.

حتى ذلك المكان الغريب أحسّت أنها رأته، وأنها عاشت نفس الموقف من قبل.

غرفة سفلية تحت الأرض، لم تعرف كيف هبطت إليها. على الحائط لوحات، وثمة أشخاص يحتفلون بمناسبة ما. كان كل شئ شاعريا وخافتا؛ الألوان والأضواء والأصوات، وهناك ومضات فلاش لا تستطيع أن تخمّن مصدرها. لم يهتم أحد بها، وهى لم يهمها أمر الاحتفال، كانت تسأل بلهفة عن شخص ما ليوقّع لها أوراقا مهمة قبل أن يفوت الأوان. قالت لها فتاة يبدو أن لها صلة رسمية بالمكان: *«أنا أعرفك، لكننى لا أعرف اسمك»*، ثم حرّكت جدارا بيدها ودفعتها إلى غرفة أخرى فيها نفس الجو الاحتفالى. كرّرت نيللى سؤالها، وسمعت نفس الكلام من فتاة تبدو أكثر أهمية من الأولى، ثم حرّكت الفتاة جدارا، ودفعتها إلى ممر طويل يشبه ممرات المستشفى لكن ليس فيه أبواب ولا شبابيك ولا سلالم. ظلت وحيدة فى الممر الممتد حتى تحولت إلى جزء من مشهد ساكن،

حاولت أن تتذكّر لكن ذلك كان مستحيلا. أدركت أنها محبوسة تحت الأرض، شهقت، وقفزت خارج الحلم:

ـ يا «سستر».

◆ ◆ ◆

فى الحلم اكتشفت نيللى أنها تسلقت الجدار الرخامى العالى دون مشقة. كان ارتفاعه مخيفا ولا يزال ممتدا، وهى معلقة به مثل برص أو شئ من هذا القبيل.

فى يمناها حلقة مفاتيح. تركتها تسقط من يدها حتى تستطيع أن تتشبث بمكانها، لكنها اكتشفت أنه لا يوجد ما يمكن أن تتشبث به. انزلقت يداها على نعومة الرخام، واستيقظت مع لحظة التطوّح المريع.

تشبثت بحافة السرير، واستنجدت بالممرضة:

ـ الحقينى يا «سستر».

◆ ◆ ◆

في الليل على فراشها؛ طلبَتْ نفسُها من تحبه فلم تجده إلى جوارها. توهَّمته في لمسات أصابعها، وطاردته عبر متاهة من الأحلام والكوابيس حتى لامست ناره، ولعقت جمرته وتوجّعت: «آه».

ألمحت لقيس بما جرى:

ـ اصطدتك في الحلم، وفعلت بك أفعالا لا تجرؤ على مثلها هند رستم.

وتوعّدته:

ـ يا ويلك يا قيس يا بن آدم من نيللى بنت حواء.

شاغبته بالكلام، ورفضت أن تصرّح، اكتفت بغمزة عين وشهقه فاجرة:

ـ بكرة تشوف بنفسك.

ثم أكلته ومصمصت عظامه بملاحها:

ـ هَمْ.

لاحظت نيللى شروده رغم افتعاله المرح، فسحبت يده على بطنها، ونَهَجَتْ بصوت ماجدة فى أفلام الأبيض والأسود:

ـ قيس يا حبيبي، عايز ولد وللا بنت؟

◆ ◆ ◆

هو كان حزينا؛ يشغله شئ.

أخبره مدير شئون العاملين أن الشهر التالى إجازته الإجبارية. شهر معهود كل سنة، يوقفون فيه عملة وراتبه حتى لا تتخذ علاقته بالمؤسسة صفة الانتظام، فتضطر لتعيينه وتسديد تأمينات اجتماعيه لصالحه حسب القانون. كان دائما راضيا بهذه الصيغة لأنها تتعامل مع وضعه الحالي فى السويتش باعتباره مؤقتا، وتفتح له الباب للانتقال بيسر إلى العمل المنتظر بالصحافة دون عوائق إدارية.

رغم رضاه عن هذا الوضع فإنه كان لا يخلو من قلق، ففي كل مرة يتسلَّط عليه السؤال المخيف: «*هل يعيدونني للعمل؟*».

في هذه الظروف القلق أكبر؛ بدأ يشك فى وعود مدير التحرير، ثم إن احتياجه للمرتب صار أكثر إلحاحا؛ الإيجار الكامل للمسكن، ومرض نيللى، وتذاكر الزيارة، والمواصلات الإضافية.

حاول أن يتخطى محنة الشهر بطلب سُلْفة من الجريدة، لكن مدير التحرير رفض، واعتبر طلبه مجرد حيلة خبيثة لإثبات استمرار علاقته بالعمل، وإجبار الجريدة على تعيينه، وعاتبه بجفاء:

ـ أعرف أنك درست فى كلية الحقوق، وأفهم ألاعيب المحامين جيدا، فلا تحاول أن تتذاكى علىّ.

ـ وعملى فى الأرشيف؟

ـ لا تنس أنه عمل تطوّعى حتى الآن.

ـ لكنك وعدتنى بالمساعدة.

ـ ما زلت عند وعدى، وعندما تعود من إجازتك سأجد طريقة لإقناع صاحب الجريدة.

◆ ◆ ◆

لا يعرف قيس ماذا يمكن أن يفعل لحل مشكلته المالية، ولا يريد أن يخبر نيللى.

هى أوحت له بالحل.

ناولته خمسة جنيهات، وطلبت منه أن يشترى لها وجبة من «كنتاكى». طأطأ رأسه، فخمّنت أنه مفلس ولا يستطيع أن يكمل ثمن الوجبة. خففت عنه:

ـ التايور الأزرق عندك، يمكنك أن تبيعه، لا يلزمنى الآن.

تناولت كفّه، ومسحت بها بطنها:

ـ «البيبى» عايز «كنتاكى».

باع قيس البدلة الخضراء والتايور الأزرق.

لم يعرضهما على سماسرة الروبابيكيا المتجولين، وإنما ذهب بهما إلى «وكالة البلح» مباشرة. توقّع أن يقدِّر التجار الكبار قيمة البضاعة، وأن يقدموا سعرا أعلى، لكنه فوجئ بأن المسألة عسيرة، والمحلات مكدسة ببالات الملابس المستعملة الواردة من الخارج.

عرض مميزات بضاعته بإسهاب، ولم يستمع إليه أحد، فبدأ يشرح احتياجه للبيع. اجتهد فى الشرح لدرجة جعلته يبدو متسولا، كان يزداد انحناء وهو يخرج من متجر إلى آخر.

لم يستجب له فى النهاية إلا تاجر جملة يشترى الواردات بالطن ويبيعها لصغار التجار بالبالة. كان الرجل يدخِّن الشيشة على رصيف متجره، لم يهتم بمعاينة البضاعة، ولا بسماع كلام الفتى، وإنما تفرّسه طويلا عبر دخان الشيشة، وسأله باقتضاب:

ـ كم تحتاج؟

ـ يكفينى ثلاثون جنيها.

ـ افتح درج المكتب، وخذ ما تريد.

تردد، لكن الرجل شجعّه بحسم:

ـ افتح.

وسأله:

ـ كم أخذت؟

فرد الأوراق الثلاثة أمامه، وعدّ:

ـ ثلاثون، كما ذكرت.

ـ خذ عشرين أخرى، أكْمِلْها خمسين جنيها.

انحنى قيس ممتنا لكرم الرجل، واهتم بأن يشرح له قيمة بضاعته. تطوّع بتعليق الشماعتين على حبل معدنى مشدود فى واجهة المحل، ثم تحسّس القماش برقّة كأنه يتحسّس جلده:

ـ قماش البذلة هيلد انجليزى، والتايور ماركة فرنسية، وياقته وأكمامه من الفرو.

لم يهتم الرجل بالنظر ولا أصغى للكلام، ظل يتأمل حلقات الدخان صامتا حتى انصرف.

كان يمكن فى ذلك الوقت رؤية العاشق من خلف، وهو يتمهل على الرصيف ليمسح حذاءه المترب بطرف بنطلونه، ويستدير برأسه باحثا فى زحام الملابس المعلّقة؛ عن لونين يتعانقان ويتباعدان مع هبّات الريح.

◆ ◆ ◆

هدأة غروب، ثم سرت دماء الكهرباء في عروق الشوارع، ولوّنت الآفاق بالإعلانات، تلك الشمس السرية التي تضئ ليل المدن العصرية. هبَّ نسيم خريفى بارد فنفخ البذلة والتايور، وحرّك أكمام الأخضر والأزرق بإشارات غامضة، ثم تسلل عبر زحام المدينة إلى فضاء النيل، لينفخ قلوع القوارب الصغيرة التى تحمل شرازم العشاق الجدد.

كان النهر يواصل رحلته الأزلية صوب الشمال، ليصب عذوبته فى هباء البحر المالح. وكانت القوارب تتخبط بين ظلال الفنادق التى تتكسر فى طيّات الموج، وتهتزّ بشدّة حين تقترب منها المراكب السياحية الكبيرة. وكان العشاق الصغار يميلون معها ويختلسون اللّمسات والقبلات،

وأخلاط من غناء ترف على سطح الماء.

فى ذلك الوقت؛ كان كيوبيد ابن فينوس يتمدد فى سحابة خريفية، تشف عن عيون تنفتح فى الهوَّة الزرقاء القاتمة فى عمق السماء.

كان يتثاءب بملل وهو يترقّب قبلات الغفلة، ويتحسّس سهامه التى صدأت فى جعبتها مع تعاقب الأزمان.

◆ ◆ ◆

طير الخريف أوراق شجر حول خطوات قيس، كان يتلفّت أحيانا، وهو يتحسس موضع السهم الذى أصاب قلبه دون أن يدرى، فى ذلك اليوم البعيد أمام البنك الأهلى.

ذلك المساء نفض الخريف الورقة الأخيرة عن «شجرة نيللى». دمعت عين البنت وهى ترقب السقوط الأخير، حوّلت نظراتها عن المشهد وقالت للممرضة:

ـ اقفلى الشباك يا «سستر»، المنظر صار يضايقنى.

ظلّت الممرضة تتردد عليها حتى وقت متأخر، كانت تنفث زُكامها فى منديل ورقي وتتحسّس أطراف البنت باليد الأخرى. انتبهت نيللى لحضورها فتشبثت بلمساتها وقالت لها:

ـ زارتنى أمى فى الليل ومسحت عرقى. كان معها ملاك، سندنى وأطعمنى ثلاث ثمرات. رفع رأسى عن الوسادة ووضعها فى فمى واحدة بعد أخرى، لكل ثمرة طعم مختلف. ثم جاء ملائكة كثيرون، رأيتهم يطوفون حول سريرى. انبثقت الوجوه والأجنحة من قشور الطلاء ومن شقوق الشيش. كانوا أكبر من المكان، لكنهم انحشروا فى تفاصيله وداروا به حولى. دارت نظراتى معهم بتعب وأنا أصغى لحفيف الأجنحة. دُخْت. ليت أمى تأتى لتمسح عرقى.

كانت نيللى تهذى.

سكتت وأصغت لصوت أنفاسها، وسمعت حفيف أجنحة الملائكة داخل صدرها، كانوا يتزاحمون فى القفص الضيق. حاولت أن تتمطّى لكنها كانت متعبة، لم تستجب أعضاؤها. سكنت وأسلمت عنقها.

◆ ◆ ◆

عند نهايات قوس النهر؛ كان الملائكة يصعدون الدرَج الفضي

متأبّطين دفاتر الخطايا. يتلفّعون بنتف من سحب خريفية، والقمر ينير طريقهم الصاعد، وهم يجرجرون أطراف عباءاتهم على الدرج. وكان يمكن على البعد سماع أصوات سعال، ووقع خطى، وصياح ديكة في أفنية السماوات.

◆ ◆ ◆

هو ذا صباح جديد. رشحَ أزرقُ السماء من فرْجة الشيش، فسكنت فراشَة الليل على سلك الكهرباء، ولمعت ذرّات غبار في شظْية الضوء التي غرزت حدّها في عنق النائمة.

في ذلك الوقت؛ كانت الأرض تدير خدّها الإفريقي للشمس، في ملل من قام بذلك مرّات لا تحصى، وتنتظره مرات أخرى بلا عدد. كان المشهد معادا؛ حتى حفيف خطى ملائكة الرحمة في ممرات المستشفى، والنقّالات المنتظرة في عتمة السلّم الهابط إلى المشْرحة.

◆ جائزة التميّز من اتحاد الكتاب لعام ٢٠٠٩
◆ جائزة الدولة للتفوق فى الأدب لعام ٢٠١٣
صدر له:

- **خافية قمر**
الطبعة الأولى ـ دار الهلال ـ مصر ١٩٩٤
الطبعة الثانية ـ دار العين ـ مصر ٢٠١٠
ترجمت للأسبانية بعنوان:
El escondite de Qamar
وصدرت عام ٢٠٠٧ عن:
Editorial Comares – Granada

- **لحن الصباح**
الطبعة الأولى ـ دار مصر العربية ـ مصر ١٩٩٤
الطبعة الثانية ـ مكتبة الأسرة ـ مصر ٢٠٠٥
الطبعة الثالثة (عربى ـ أسبانى) ـ دار سنابل ـ مصر ٢٠١٠
ترجمت للأسبانية بعنوان:
Cancion de manana وصدرت عام ٢٠٠٥ عن:
Instituto Egipcio de Estudio Islamicos
ترجمت للفرنسية بعنوان:
La melodie du matin وصدرت عام ٢٠٠٦ عن:
L' Harmattan

- **مقامات عربية**
الطبعة الأولى ـ دار الهلال ـ مصر ١٩٩٩
الطبعة الثانية ـ دار نارة ـ الأردن ٢٠٠٦

- العايقة بنت الزين
الطبعة الأولى ـ دار الهلال ـ مصر ٢٠٠١
الطبعة الثانية ـ مكتبة الأسرة ـ مصر ٢٠٠٦
- رجل أبله امرأة تافهة
الطبعة الأولى ـ دار الهلال ـ مصر ٢٠٠٢
الطبعة الثانية ـ دار نارة ـ الأردن ٢٠٠٦
-الأفندى
الطبعة الأولى ـ دار الهلال ـ مصر ٢٠٠٨
الطبعة الثانية ـ مكتبة الأسرة ـ مصر ٢٠٠٩
الطبعة الثالثة ـ دار جداول ـ بيروت ٢٠١٠
- ليلة سفر
الطبعة الأولى ـ دار الهلال ـ مصر ٢٠١٠
الطبعة الثانية ـ مكتبة الأسرة ـ مصر ٢٠١٠
-تسابيح النسيان
دار العين ـ مصر ـ ٢٠١١
-الأعمال الكاملة
هيئة الكتاب ـ مصر ـ ٢٠١٤
المجلد الأول: خافية قمر ـ لحن الصباح ـ مقامات عربية
المجلد الثانى: العايقة بنت الزبن ـ رجل أبله .. امرأة تافهة
المجلد الثالث: الأفندى ـ ليلة سفر.

mohammednagy@hotmail.com

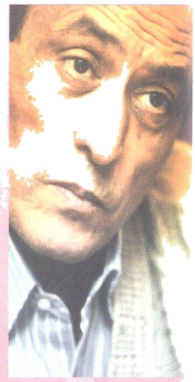

محمد ناجي

هذه الرواية

يخدعنا محمد ناجى بعنوان روايته الجديدة «قيس ونيللى»، فهو لا يروى حكاية مثيرة للعواطف، بقدر ما يعرض أوضاع عالم يحاصر المحبة بكل معانيها ويدمّر القيم الجميلة فى الحياة.

فى نسيج الرواية قصة حب بين فتى وفتاة، لكن الروائى لا يفرد لهما إلا مساحة صغيرة وسط حكايات الشخصيات الأخرى، بحيث يبدو لحن الغرام الذى يجمعهما مشتتا متقطعا وسط سيفونية واقعية معقدة التفاصيل، وصفحة بعد صفحة يتعرى الحب من براءته وبهجته، ويختنق تحت وطأة واقع يحكمه عجائز.

ويتسق بناء الرواية مع لغة يعلو فيها المجازى على الواقعى، بحيث تسيطر أخلاط أحاديث العجائز المستعادة على الواقع، وتبدو الطبيعة وكأنها أسلمت نفسها لدوراتها المُقدّرة دون رغبة حقيقية فى الفعل. لقد ملّت الأرض دوراتها المعتادة، وشاخت الريح والشمس، وكلل الشيب رؤوس الملائكة.

الغلاف: أحمد اللباد

عن مؤسسة
الأهرام

طبع بمطابع الأهرام بقليوب

0103000000019070